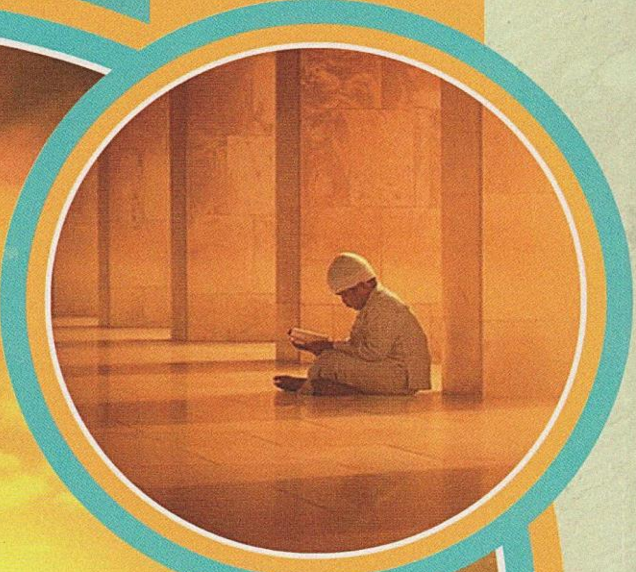
ديفيد هيوم



نقله إلى العربية: حسام الدين خضور

التاريخ الطبيعي للدين

دار الفرقد

التاريخ الطبيعي للدين

عنـــوان الكتـــاب : التاريخ الطبيعي للدين

العنـوان في اللغـة الأصـلية : The Natural History of Religion

المؤلـــــــــف : ديفيد هيوم David Hume

نقلـه إلى العربيـة : حسام الدين خضور

الطبعـــــة الأولى : تشرين الأول / 2014

التنفيذ والإشراف : دار الفرقد

الإخـــراج الفـــني : وفاء الساطي

التـدقيق اللغـوي : حسام بركات

جميع الحقوق محفوظة

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سورية

Email: alfarqad71@hotmail.com

alfarqad70@Gmail.com

هاتف : (00963-11) 6618303 - 6660915

فاكس : (00963-11) 6660915

ص . ب : 34312

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه بكلّ طرق الطّبع
والتصوير والنّقل والتّرجمة إلا بإذنٍ خطّي من الناشر

ديفيد هيوم

التاريخ الطبيعي للدين

نقله إلى العربية

حسام الدين خضور

المحتويات

مقدمة

مثل كل بحث ذي أهمية كبيرة، يخص الدين، ثمة سؤالان على وجه الخصوص، يتحديان اهتمامنا، بالنسبة للباحث، يتعلق الأول بأساس الدين في العقل، ويتعلق الثاني بمنشئه في طبيعة الإنسان. ولحسن الحظ، فإن السؤال الأول، وهو الأكثر أهمية، هو الأكثر وضوحاً، في الأقل، الحل الأكثر وضوحاً. فإطار الطبيعة كله يدل على مبدع ذكي، ولا يستطيع باحث عقلاني، بعد تأمل جدي، إلا أن يؤمن بالمبادئ الأولية الحقيقية للتوحيد والدين. أما السؤال الآخر، الذي يهتم بأصل الدين في الطبيعة البشرية، فيبدي صعوبة أكبر. فقد انتشر الإيمان بقوة غير مرئية ذكية، بشكل عام، بين البشر في كل الأمكنة وكل العصور، لكنه، ربما لم يكن شاملاً، لنعترف أنه لم يوجد استثناء، ولم يكن متسقاً في الأفكار التي تضمنها أيضاً. فقد اكتُشِف أن بعض الأمم لم تتمتع بعواطف الدين، إذا كان الرحالة والمؤرخون جديرين بالثقة، ولا توجد أمتان، وربما شخصان توافقت

عواطفهما تماماً. لذلك يبدو أن هذه الفكرة الأولية لا تتبع من غريزة أصلية أو نسخة من الطبيعة، مثل تلك التي تدفع إلى حب الذات والعاطفة بين الجنسين وحب الذرية والامتنان والاستياء؛ بما أن كل غريزة من هذا النوع وُجِدت عالمياً بالمطلق لدى كل الأمم وفي كل العصور وكان لها دائماً هدفاً محدداً بدقة تسعى إليه على نحو يتعذر تغييره. أما المبادئ الدينية الأولى فلا بد أنها ثانوية؛ مثل تلك التي يمكن أن تفسد بسهولة لأحداث وأسباب مختلفة، والتي يمكن أن يُمنَع عملها أيضاً، في بعض الحالات، ربما بتزامن ظروف استثنائية، جملة وتفصيلاً. فما هي تلك المبادئ، التي تدفع إلى الإيمان الأصلي، وما هي تلك الحوادث والأسباب التي تدير عملها، هي موضوع بحثنا في هذا الكتاب.

القسم الأول

تعدد الآلهة هو الدين الأول للناس

يبدو لي، إذا أخذنا تطور المجتمع الإنساني بالحسبان، من بداياته الأولى إلى حالة أكثر كمالاً، أن تعدد الآلهة، أو الوثنية، كان، بالضرورة، هو الدين الأول والأكثر قدماً للإنسانية. وهذا الرأي هو ما أسعى إلى إثباته بالبراهين التالية.

إن الحقيقة، التي لا تقبل الجدل، هي أنه قبل نحو 1700 سنة، كانت الإنسانية جمعاء متعددة الآلهة. فالمبادئ الشكية والريبية بالوثنية لدى بعض الفلاسفة، أو التوحيد، وذلك أيضاً لم يكن نقياً بالكامل، لدى أمة أو أمتين، لا تشكل نفياً جديراً بالاعتبار. إذن لنرَ شهادة التاريخ الواضحة. بقدر ما نذهب أبعد في العصور القديمة نجد الإنسانية مغمورة في تعددية الآلهة. لا توجد

أية علامات ولا أية أعراض لأي دين أكثر كمالاً. والسجلات الأكثر قدماً للإنسان لا تزال تتحفنا بتلك المنظومة بوصفها العقيدة الشعبية والراسخة. إن مناطق الشمال والجنوب والغرب والشرق، تقدِّم شهادتها الجماعية للواقع عينه. ما الذي يمكنه أن يعارض دليلاً تاماً مطابقاً للواقع؟

وإلى الحد الذي تصل إليه الكتابات أو التاريخ، يبدو أن الإنسانية، في العصور القديمة، كانت متعددة الآلهة عالمياً، هل يجب أن نؤكد أنه، في الأزمنة الأكثر قدماً، قبل معرفة الحروف الأبجدية، أو اكتشاف أي من الفنون أو العلوم، أن الناس كانوا يؤمنون بمبادئ الإيمان النقي بوجود إله واحد؟ أي أنهم اكتشفوا الحقيقة عندما كانوا جاهلين وبرابرة: ووقعوا في الخطأ، عندما تعلموا وتهذبوا.

لكننا في هذا التأكيد لا نناقض كل مظاهر الاحتمالية وحسب، بل نناقض تجربتنا الحالية المتعلقة بمبادئ الشعوب البربرية وآرائها. فالقبائل المتوحشة في أمريكا وأفريقيا وآسيا كلها وثنية. ولا يوجد استثناء واحد لهذه القاعدة. وإلى حدّ ما، حيثما انتقل مسافر إلى منطقة غير معروفة، إذا وجد سكاناً ذوي فنون وعلوم، حتى في هذه الفرضية توجد أشياء غريبة ضد كونهم موحدين، لكن لا يمكنه أن يعلن على نحو آمن، حتى يجري

المزيد من البحث، أي شيء تحت هذا العنوان: لكن إذا وجد أنهم جاهلون ومتوحشون، يمكنه أن يصرح مقدماً أنهم وثنيون، وقلما توجَد إمكانية على أنه مخطئ.

يبدو أكيداً، تبعاً للتقدم الطبيعي للفكر الإنساني، أن الجماهير الأمية تمتعت أولاً بفكرة ما متدينة ومألوفة للقوى المتفوقة، قبل أن توسع مفهومها إلى ذلك الكائن المثالي الكامل، الذي يمنح النظام لإطار الطبيعة الكلي. ويمكننا أن نتخيل بطريقة منطقية، أن الناس سكنوا القصور قبل الأكواخ والبيوت، أو درسوا الهندسة قبل الزراعة، كما نؤكد أن الإلوهية ظهرت لهم روحاً نقياً، كلي المعرفة وكلي القدرة وكلي الوجود، قبل أن يُدرِك أنه قوي، مع أنه كائن محدود، ذو عواطف وشهوات إنسانية وأعضاء وجوارح إنسانية. فالعقل ينمو تدريجياً، من الأدنى إلى الأعلى: بالتجريد مما هو ناقص، إنه يشكل فكرة عما هو تام: وببطء ميَّز الأجزاء الأكثر نبلاً في جسده من الأجزاء الغريزية، ويتعلم كيف يجب أن يحول الأولى فقط، الأكثر تسامياً ودقة، إلى إلوهيته، لاشي يمكنه أن يعوق هذا التقدم الطبيعي للفكر، إلا برهان ما واضح ولا يُرَدّ، يمكنه أن يقود العقل فوراً إلى المبادئ الخالصة للتوحيد، ويجعله يقفز، بقفزة واحدة، الفاصل الشاسع بين الإنسان والطبيعة المقدسة.

ولكن على الرغم من ذلك أعترف، بأن نظام الكون وإطاره، عندما يُدرَس بدقة، يقدم برهاناً مثل هذا، ومع ذلك لا أستطيع أن أفكر مطلقاً، بأن هذا الاعتبار لم يكن له أي تأثير في الناس، عندما شكلوا أفكارهم البدائية الأولى عن الدين.

لا تثير أسباب مثل هذه الأشياء، بما أنها مألوفة تماماً لنا، اهتمامنا أو فضولنا مطلقاً، ومهما تكن هذه الأشياء استثنائية، ومذهلة بذاتها، تتجاهلها الناس الجاهلون والبدائيون، من دون فحص أو تمحيص. فآدم، الثائر تواً، في الجنة، وفي كامل قدراته، من الطبيعي، كما جسَّده ملتون، أن تدهشه مظاهر الطبيعة المجيدة، والسموات والفضاء والأرض وجوارحه وأعضاؤه، وتقوده إلى السؤال من أين طلع هذا المشهد الرائع. لكن حيواناً بربرياً ومحتاجاً (مثل إنسان في نشأة المجتمع الأولى)، مضغوط بحاجات وعواطف وأهواء كثيرة ليس لديه وقت راحة للإعجاب بمظاهر الطبيعة المنتظمة أو ليقوم بأبحاث تخص سبب هذه الأشياء، التي تعوَّد عليها تدريجياً منذ طفولته الأولى. على العكس، بقدر ما تكون أكثر اتساقاً ونظاماً، أي، تبدو طبيعة أكثر كمالاً، يغدو أكثر ألفة بها، وأقل ميلاً إلى تفحصها والتأمل فيها. ولادة شاذة غير سوية تثير فضوله ويُحكمَ عليها بأنها أعجوبة. إنها تحذره من جدتها، وفي الحال تجعله يرتجف

ويقدم الأضاحي والصلاة. لكن حيواناً، كامل الأعضاء والجوارح، هو بالنسبة له مشهد عادي، ولا يولد رأياً أو تأثيراً دينياً. اسأله، من أين جاء ذلك الحيوان؟ وهو سيخبرك، من جماع والديه. وهؤلاء، من أين؟ من جماع والديهم. عدة نقلات ترضي فضوله، وتضع هذه الأشياء على مسافة مثل هذه، التي يفقد رؤيتها بالكامل. لا تتخيل، أنه غالباً ما سيبدأ السؤال، من أين جاء الحيوان الأول؛ وأقل من ذلك، من أين جاءت المنظومة الكاملة أو نسيج الكون المتآلف كله. أو، إذا بدأت توجه إليه سؤالاً كهذا، لا تتوقع منه أن يشغل عقله في موضوع، ناءٍ جداً، غير مثير جداً، ويتجاوز حدود قدرته كثيراً.

لكن بالإضافة إلى ذلك، لو استرشد الناس أولاً إلى الإيمان بكائن سامٍ واحد، بسببية من إطار الطبيعة، فربما ما كان بمستطاعهم التخلي عن ذاك الاعتقاد، لاعتناق آلهة متعددة؛ لكن مبادئ العقل نفسها، التي أنتجت في البداية وانتشرت بين البشر، رأياً رائعاً جداً، يجب أن تكون قادرة على حمايتها بسهولة وبراعة أكبر. فالابتكار الأول لأية عقيدة والبرهان عليها أكثر صعوبة بما لا يقاس من دعمها والاحتفاظ بها.

ثمة فرق كبير بين الوقائع التاريخية والآراء التأملية؛ فمعرفة إحداها لا يعني أن الأخرى تتوالد بالطريقة نفسها. ففي حين تتنقل

الواقعة التاريخية عبر التقاليد الشفهية من شهود عيان ومعاصرين وتضع قناعاً جديداً من رواية إلى أخرى، إلى درجة يمكن في النهاية ألا تحتفظ إلا بشبه صغير جدا ، إذا بقي فيها شيء، يشبه الحقيقة الأصلية، التي تأسست عليها. فذاكرة الناس الضعيفة، وحبهم للمبالغة ولا مبالاتهم؛ إذا لم تُصحَّح هذه المصادر بالكتب والكتابة، فسريعاً ما تفسد الروايات التاريخية، حيث لا يوجد للجدل أو السببية إلا حيز صغير أو لا حيز، ولا يمكن استرداد الحقيقة، التي نجت ذات مرة من تلك الروايات. وبالتالي يُفترض أن تكون خرافات هرقل وذيوس وباخوس موجودة أصلاً في التاريخ الحقيقي، وأفسدتها التقاليد. لكن في ما يتعلق بالآراء التأملية، فالحال مختلفة جداً. فإذا تأسست تلك الآراء على براهين واضحة وجلية تجعل الأغلبية تقتنع بها، فالبراهين نفسها التي نشرت تلك الآراء في البداية، تبقى تحتفظ بنقائها الأصلي. وإذا كانت البراهين أكثر غموضاً وبعيدة عن فهم عامة الناس، فستبقى تلك الآراء دائماً محصورة لدى عدد قليل من الأشخاص، وحالما يتخلى هؤلاء الناس عن التفكير بتلك البراهين، تضيع تلك الآراء وتدفن في عالم النسيان سريعاً. فأي جانب من هذه المعضلة، لا بد أن يبدو مستحيلاً، أن يكون التوحيد، من السببية، هو الدين الأول للبشر، وبالتالي بإفساده، قد ولَّد الإيمان بآلهة متعددة وكل

المعتقدات الخرافية في العالم الوثني. السببية، عندما تكون واضحة، تمنع هذه التضليلات: عندما تكون مبهمة، تبقى المبادئ بعيدة كلية عن معرفة عامة الناس الذين هم وحدهم مسؤولون عن إفساد أي مبدأ أو رأي.

القسم الثاني

أصل الإيمان بآلهة متعددة

لذلك إذا أردنا أن نطلق العنان لفضولنا، فالبحث المعني في أصل الدين، يجب علينا أن نوجه أفكارنا باتجاه الإيمان بآلهة متعددة، الدين البدائي للبشر غير المتعلمين.

لو أدرك الناس القوة غير المرئية الذكية بالتأمل في أعمال الطبيعة، لربما ما كانوا تمتعوا بأي مفهوم آخر غير كائن واحد وحيد، هو الذي وهب الوجود والنظام لهذه الآلة الهائلة وضبط كل أجزائها وفق خطة منتظمة واحدة أو نظام مترابط واحد. لهذا، بالنسبة لأشخاص ذوي ميل معين، يمكن ألا يبدو سخيفاً، أن تكون مجموعة من الكائنات المنفصلة موهوبة بحكمة متفوقة، أمكنها أن تتعاون في اختراع وتنفيذ خطة منتظمة؛ فهل هذه فرضية اعتباطية ببساطة، التي، حتى إذا سلمنا بأنها ممكنة،

فيجب أن نعترف بأنها غير مدعومة لا بالاحتمالية ولا بالضرورة. كل شيء في الكون هو بوضوح جزء من كل. فكل شيء مُجَهَّز لكل شيء. تصميم واحد يسود الكل. وهذا الاتساق يقود العقل إلى الاعتراف بمؤلف واحد، لأن مفهوم المؤلفين المختلفين، من دون أي تمييز للصفات المميزة والعمليات، لا يخدم إلا أن نعقد ونربك الخيال، من دون رضاً عن فهم هذه المسألة. فتمثال **لاكون**، كما عرفنا من بليني، كان نتاج عمل ثلاثة فنانين: لكن من المؤكد، لو لم نُخبر بذلك، لم نكن لنتخيل، أن مجموعة من الأشكال، قد اقتطعت من صخرة واحدة، ودمجت معاً في خطة واحدة، وليست عمل وإبداع نحات واحد. أن نعزو أي نتيجة مفردة إلى تضافر أسباب متعددة، وليس بالتأكيد فرضية طبيعية وواضحة.

من جهة أخرى، إذا اقتفينا أثر خطوات قوة خفية في حوادث مختلفة ومتناقضة في الحياة الإنسانية، فإننا بالضرورة نتجه إلى الإيمان بآلهة متعددة والاعتراف بعدة آلهة محدودة وغير كاملة. فالعواصف والأعاصير تدمر ما غذته الشمس. والشمس تدمر ما ينشأ برطوبة الندى والمطر. وقد تفضل أمة ما الحرب لتجنب المجاعة التي تسببها قساوة الفصول. والمرض والطاعون قد يأتي على سكان مملكة ما، في غمرة الوفرة الأكثر إسرافاً. والدولة نفسها لا تتجح بنفس القدر، بنفس الوقت، في البر والبحر. وأمة ما، انتصرت في وقت ما على أعدائها، قد تخضع في وقت آخر

لجيوشها الأكثر نجاحاً وثراء. باختصار، إدارة الأحداث، أو ما ندعوه خطة عناية إلهية خاصة، حبلى بالتنوع وعدم اليقينية، التي، إذا افترضنا أنها حدثت في الحال بأمر أية كائنات ذكية متفوقة، يجب أن نعترف بتناقض تصميماتها وغاياتها والقتال المستمر للقوى المتعارضة، وندم أو تغير الغاية في القوة ذاتها، من العجز أو الخفة. لكل أمة آلهتها الحارسة. وكل عنصر يخضع لقوته أو عامله الخفي. ودائرة كل رب منفصلة عن دائرة الرب الآخر. وعمليات الرب نفسه ليست مؤكدة وثابتة. فاليوم هو يحمينا: وفي الغد يتخلى عنا. والصلوات والأضاحي، الشعائر والمراسم، المقدَّمة بطريقة جيدة أو سيئة، هي مصدر تفضيله أو عداوته، وتولد كل الأقدار الجيدة أو السيئة، الموجودة بين البشر.

لذلك، يمكننا أن نجمل ذلك في كل الأمم، التي اعتنقت آلهة متعددة، أن أفكار الدين الأولى لم تنشأ من التأمل في أعمال الطبيعة، بل من الاهتمام بما يتعلق بأحداث الحياة ومن الآمال والمخاوف المتوالية، التي تشغل عقل الإنسان. ووفقاً لذلك، نجد، أن لدى عبدة الأوثان، الذين فصلوا دوائر آلهتهم، ملاذاً إلى تلك القوة الخفية، التي أخضعوا أنفسهم لسلطتها، وإلى الدائرة التي تدبر ذلك المسار للأحداث، التي يشاركون فيها في أي وقت. فيُستحضَر جونو في الزيجات ولوسينا في الولادات. ويتلقى نبتون

صلوات البحارة ومارس صلوات المحاربين. والزوج يحرث حقله بحماية سيريز والتاجر يعترف بسلطة مركوري. وكل حدث طبيعي يفترض أن يكون محكوماً بقوة ذكية ما، ولا شيء، سواء كان مؤاتياً أو غير مؤاتٍ، يمكن أن يحدث في الحياة، يمكن ألا يمتثل لصلوات أو تقدمات شكر خاصة.[1]

وفي الحقيقة يجب أن يُسلَّم، بالضرورة، أنه من أجل حمل غاية الناس إلى ما وراء مسار الأشياء الحالية، أو دفعهم إلى أي استنتاج يخص القوة الذكية الخفية، لابد من أن يكونوا منشغلين بعاطفة ما، تحث فكرهم وتأملهم، ودافع ما، يحفز بحثهم الأول. لكن ما هي العاطفة التي سنلوذ إليها هنا، لتفسير أحد تأثيرات هذه النتائج القوية؟ ليس الفضول التأملي بالتأكيد، أو حب الحقيقة الخالص. ذلك الدافع دقيق جداً لتلك الإدراكات العامة؛ وسيقود الناس إلى أبحاث تخص إطار الطبيعة، موضوع كبير وشامل نظراً لقدراتهم الضعيفة. إذن، يجب ألا نفترض أنه

---

(1) 'Fragilis & laboriosa mortalitas in partes ista digessit, infirmitatis suae memor, ut portionibus coleret quisque, quo maxime indigeret.'PLIN. lib. ii. cap. 5. في زمن هزيود بلغ عدد الآلهة ثلاثين ألفاً Oper. & Dier. lib. i. ver. 250. لكن العمل الذي كان على تلك الآلهة القيام به يبدو ضخماً جداً بالنسبة للعدد. أعمال الآلهة قسمت وقسمت إلى حد كان هناك رباً للعطس، راجع ARIST. Probl. sect. 33. cap. 7. وفعل الجماع كان موزعاً بين العديد من الآلهة بما يتناسب مع أهميته.

يمكن لأية عواطف أن تُقنِع هؤلاء البرابرة، غير أهواء حياة الإنسان العادية؛ وغير التطلع القلق إلى السعادة، والخوف من بؤس المستقبل، والرعب من الموت، والتعطش إلى الانتقام، والشهية إلى الطعام وضرورات أخرى. وقد أثارت الآمال والمخاوف من هذه الطبيعة، لاسيما المخاوف، الناس فأمعنوا النظر، بفضول قلق، بأسباب مسار المستقبل ودرسوا الأحداث المختلفة والمتناقضة في حياة الإنسان. وفي هذا المشهد المضطرب، في أعين أكثر اضطراباً وذهولاً، رأوا الآثار الغامضة الأولى لله.

القسم الثالث

الموضوع نفسه يستمر

لقد وُضِعنا في هذا العالم، كما لو في مسرح كبير، حيث تكون القوى والأسباب الحقيقية للأحداث محجوبة عنا بالكامل، ولا نملك أيضاً الحكمة الكافية لنستبصرها، أو القوة لنمنع شرورها، التي تهددنا باستمرار. إننا معلقون في ترقب دائم بين الحياة والموت، وبين الصحة والمرض، وبين الوفرة والحاجة، التي توزعها بين البشر أسباب سرية ومجهولة، غالباً ما يكون عملها غير متوقع ودائماً غير محسوب. ثمّ، تغدو هذه الأسباب المجهولة هي الشيء الثابت لأملنا وخوفنا؛ وفي حين تبقى العواطف متأهبة في حذر دائم وترقب قلق للأحداث، يُشغَل الخيال أيضاً في تشكيل أفكار تلك القوى، التي نعتمد عليها تماماً. إذا ما استطاع الإنسان أن يشرِّح الطبيعة، وفقاً للاحتمال

الأكبر، في الأقل الفلسفة التي يمكن إدراكها بالعقل، سيجد الناس أن تلك الأسباب لا شيء غير النسيج الخاص وبنية الأجزاء الدقيقة لأجسادهم هم بالذات والأشياء الخارجية؛ وأن الأحداث التي يهتمون بها كثيراً تنتجها آلة منتظمة وثابتة. لكن هذه الفلسفة تتجاوز فهم عامة الناس الجاهلين، الذين لا يمكنهم أن يعوا الأسباب المجهولة إلا بطريقة عامة ومشوشة؛ مع أن خيالهم، المنشغل بشكل دائم في الموضوع نفسه، يجب أن يعمل على تشكيل فكرة ما خاصة ومميزة عنها. بقدر ما يتأملون في هذه الأسباب نفسها، والشك بعملها، يكون الاقتناع الذي يجدونه في أبحاثهم أقل، و، مهما يكونوا غير راغبين، فلا بد أن يتخلوا عن محاولة صعبة للغاية، إذا لم يكن ذلك من أجل نزوع في الطبيعة البشرية، يقود إلى نظام ما، يقدم لهؤلاء الناس بعض الرضا.

ثمة ميل عام بين البشر يصور الكائنات كلها على شاكلتهم، وينقل تلك الصفات التي يألفونها ويعونها بحميمية إلى كل شيء. فنجد الوجوه البشرية في القمر، والجيوش في الغيوم، وبميل طبيعي، إذا لم يصحح بالتجربة والتأمل، نعزو النوايا السيئة أو الطيبة كل شيء، يؤذينا أو يسرنا. ومن هنا، جاء تواتر وجمال إضفاء الصفات البشرية على الجمادات في الشعر، حيث تُشخَّص الأشجار والجبال والجداول، وتُضفى العاطفة والمشاعر على الأجزاء غير الحية في الطبيعة. ومع أن هذه الصور والتعابير

الشعرية لم تقارب الإيمان، إلا أنها تخدم، في الأقل، إثبات ميل أكيد في الخيال، لا يمكن أن تكون من دونه جميلة وطبيعية. ولا إله النهار أو حورية الغابات تؤخذ دائماً لمجرد تشخيص شعري أو تخيلي، بل يمكن أحياناً أن تدخل إلى العقيدة الحقيقية للرعاع الجاهل، حيث تُمثّل كل أيكة أو حقل كما لو أنها تمتلك صفة خاصة أو قوة خفية تسكنها وتحميها. لا، لا يستطيع الفلاسفة أن يستثنوا أنفسهم بالكامل من هذه الهشاشة الطبيعية، لكنهم غالباً ما يعزون إلى المادة غير الحية رعب الفراغ والتعاطف والكراهية ومشاعر أخرى في الطبيعة البشرية. واللامعقول ليس أقل، عندما نتطلع إلى الأعلى، وننقل، كما هو معتاد جداً، أهواء الإنسان ومعايبه إلى الله، ونمثله حسوداً ومنتقماً ونزوياً ومنحازاً و، في اختصار، إنساناً شريراً وأحمق في كل شيء سوى قوته وسلطته المتفوقة. إذن لا عجب أن يضطر الناس، الذين عاشوا في هذا الجهل المطبق بالأسباب، وكانوا في الوقت نفسه قلقين جداً إزاء ما خفي من أقدارهم، أن يعترفوا باعتمادهم على قوى غير مرئية تمتلك العاطفة والذكاء. إن الأسباب غير المعروفة، التي تستخدم فكرها باستمرار، تبدو دائماً في المظهر نفسه، هي كلها مفهومة على أنها من النوع أو الكائنات نفسها. ولن يمر وقت طويل قبل أن نعزو لها الفكر والعقل والعاطفة وحتى أعضاء الناس وأشكالهم أحياناً لنجعلها أكثر شبهاً بنا.

بقدر ما يكون مسار حياة أي إنسان محكوم بالمصادفة، نجد دائماً أن معتقده الخرافي يزداد، كما نلاحظ ذلك بشكل خاص لدى المقامرين والبحارة، الذين، لأنهم، من كل الناس، هم الأقل قدرة على التأمل الجدي، فهم الأكثر تمسكاً بالأفكار التافهة والخرافية. للآلهة، كما يقول كوريولانوس في ديوى يسيوس،[1] تأثير في كل القضايا، لكن فوق كل شيء، في الحرب، حيث يكون الحدث غير مؤكد إلى حدٍّ كبير. فالحياة الإنسانية كلها، لاسيما قبل مؤسسة النظام والحكومة الرشيدة، كونها تخضع للمصادفات الاعتباطية، يكون طبيعياً، أن يسود الاعتقاد الخرافي في كل مكان في العصور البربرية، ويدفع الناس إلى البحث الأكثر جدية في ما يخص تلك القوى الخفية التي تقدر سعادتهم أو تعاستهم. ويظلون، بسبب جهلهم علم الفلك وعلم تشريح النبات والحيوان وبسبب ضعف دافع فضولهم لمراقبة التعديل والضبط المثير للإعجاب في الأسباب النهائية، يظلون عاجزين عن إدراك الخالق الأول والأعلى، وإدراك تلك الروح الكاملة بالمطلق، التي وحدها، بإرادتها الكلية القدرة، تهب النظام لإطار الطبيعة كله. إن فكرة رائعة مثل هذه مستحيلة بالنسبة لمفاهيمهم الضيقة، التي لا يمكنها ملاحظة جمال العمل ولا فهم عظمة فاعله. هم يفترضون آلهتهم، مهما

(1) Lib. viii. 33.

تكن قوية وخفية، ليست غير نوع من الكائنات البشرية، ربما ارتقت من بين البشر، واحتفظت بكل أهواء البشر وشهواتهم بالإضافة إلى أعضائهم وجوارحهم الجسدية. وهذه الكائنات المحدودة، على الرغم من أنها سادة القدر البشرية، يجب أن تتضاعف كثيراً، كي تجيب على تلك التشكيلة من الأحداث، التي تحدث في الطبيعة كونها غير قادرة على بسط نفوذها خارج منطقة كل منها. وهكذا اختزنت الأمكنة حشداً من الآلهة المحلية؛ وهكذا ساد الاعتقاد بتعدد الآلهة ولا يزال يسود بين القسم الأعظم من البشر غير المتعلمين.[1]

يمكن لكل العواطف الإنسانية أن تقودنا إلى فكرة القوة الخفية والذكية، الأمل كما الخوف، العرفان بالجميل كما البلوى: لكن إذا فحصنا قلوبنا، أو راقبنا ما يدور حولنا، فسنجد، أن الناس غالباً ما يُركّعون بسبب الحزن أكثر مما

---

[1] الأبيات التالية من يوريبيدس مناسبة جداً للغرض الحالي، إلى درجة لا أستطيع أن أتحمل اقتباسها:

{Ouk estin ouden piston, out' eudoxia,
Out' ay kalos prassonta me praxein kakos.
Phrousi d' auth' oi theoi palin te kai proso
Taragmon entithentes, os agnosia
Sebomen autous.} Hecuba, 956.

لا يوجد شيء آمن في هذا العالم، لا المجد ولا النجاح. الآلهة تقذف الحياة كلها إلى الفوضى؛ تمزج كل شيء بنقيضه، إلى درجة أننا جميعاً، بسبب جهلنا وشكنا، قد ندفع لها المزيد من العبادة والتبجيل.

يفعلون ذلك استجابة للعواطف المقبولة. فمن جهة نتلقى الازدهار بسهولة كحق لنا، ونادراً ما ما نوجه أسئلة عن سببه ومصدره. وهو يثير البهجة والنشاط والخفة ومتعة حية لكل المسرات الاجتماعية والحسية: وعبر هذه الحالة للعقل قلما يكون لدينا وقت أو ميل للتفكير بالمجالات المجهولة والخفية. ومن جهة أخرى كل مصادفة كارثية تحذرنا وتجعلنا نبحث عن أسبابها: تنشأ مخاوف في ما يخص المستقبل: والعقل، الذي يغوص في عدم الثقة والرعب والكآبة، يلجأ إلى كل الطرق التي تسترضي تلك القوى الغامضة الذكية التي يفترض أن قدرنا يعتمد عليها بالكامل.

لا يوجد موضوع أكثر ألفة بكل المقدسات الشعبية من عرض أفضليات البلوى، لجلب الناس إلى الإحساس المباشر بالدين، بإخضاع ثقتهم وإحساسهم، الذي، في زمن الرخاء، يجعلهم يتناسون العناية الإلهية المقدسة. وهذا الموضوع ببساطة ليس محصوراً بالأديان الحديثة. لقد استخدمته الأديان القديمة أيضاً. ربما لم يهب الحظ سعادة خالصة للبشر بسخاء ومن دون حسد كما يقول مؤرخ إغريقي،[1] لكنه ضمَّن كل هباته حوادث كارثية لتعاقب الناس لتبجيل الآلهة، التي، يميل الناس إلى تجاهلها ونسيانها في ظروف الرخاء المستدامة.

[1] Diod. Sic. lib. iii. 47.

ما هو العمر أو فترة الحياة التي تكون أكثر إغراء بالمعتقد الخرافي؟ إنها الأكثر ضعفاً والأكثر جبنًا. وما هو الجنس؟ يجب أن يُعطى الجواب نفسه. يقول سترابو، [1] القادة والأمثلة على كل نوع من المعتقدات الخرافية هم النساء. هؤلاء يحفزن الرجال على التقوى والتضرع والتقيد بالأيام الدينية. فمن النادر أن تلتقي برجل يعيش بعيداً عن الإناث، وفوق ذلك مدمن على هذه الممارسات. ولا شيء يمكنه، لهذا السبب، أن يكون أكثر استحالة، من الرواية المقدمة عن صنف من الرجال بين الجيتيات (Getes)، اللواتي يمارس التبتل، ولكن على الرغم من ذلك كانوا الأكثر تعصباً دينياً. إنها طريقة الاستنتاج من الوقائع والمقدمات، التي تقودنا إلى أن نتسلى بفكرة سيئة عن ورع النساك، ألم نعلم بتجرية ما، ليست شائعة جداً، ربما، في أيام سترابو، أن الشخص قد يمارس التبتل، ويتظاهر بالطهارة والعفة، وفوق ذلك يحافظ على أوثق العلاقات والتعاطف الكلي مع ذلك الجنس الأكثر جبناً وورعاً.

[1] Lib. v. 297.

القسم الرابع

آلهة لا تُعَدّ خالقة ولا مكوِّنة للعالم

النقطة الوحيدة في اللاهوت، التي سنجد فيها اتفاقاً شاملاً بين البشر، هي، أنه ثمة قوة خفية ذكية في العالم: لكن ما إذا كانت هذه القوة هي عليا أم تابعة، وما إذا كانت محصورة بكائن واحد، أو موزعة بين عدة كائنات، وما صفات أو خصائص أو علاقات أو مبادئ الفعل التي يجب أن تُعزى لتلك الكائنات، في ما يخص كل هذه النقاط، هناك الفرق الأوسع في المنظومات الشعبية للاهوت. فقد اعتقد أسلافنا في أوروبا قبل الأبجدية، كما نفعل نحن في الوقت الحاضر، أنه يوجد رب واحد أسمى، هو الذي خلق الطبيعة، الذي قوته، مع أنها في ذاتها يتعذر التحكم بها أو ضبطها، غالباً ما مارستها ملائكته وكهنته، الذين نفذوا رغباته المقدسة. لكنهم اعتقدوا أيضاً،

بأن الطبيعة كانت مليئة بقوى أخرى خفية، جنيات، عفاريت، أشباح، كائنات، أقوى وأكثر جبروتاً من الناس، لكنها أدنى مرتبة من تلك الكائنات ذات الطبيعة الإلهية، التي تحيط بعرش الله. الآن، لنفترض، أن أي شخص، في تلك العصور، أنكر وجود الله وملائكته، فهل تستحق لا تقواه تسمية الإلحاد، على الرغم من أنه يسلم بشيء من التفكر النزوي الشاذ، أن القصص الشعبية عن العفاريت والجنيات صحيحة وذات أساس قوي؟ الفرق، من جهة، بين شخص كهذا والملحد الحقيقي هو إلى حد بعيد أعظم من ذلك، ومن جهة أخرى، بينه وبين الشخص الذي يستبعد بالمطلق كل القوى الخفية الذكية. وتلك حماقة أن نصنف مثل هذه الآراء المتعارضة تحت التسمية نفسها، لمجرد تشابه الأسماء العرضي، من دون أي توافق في المعنى.

بالنسبة لأي شخص، يفكر بدقة في المسألة، سيبدو، أن أرباب كل المؤمنين بآلهة متعددة ليست أفضل من عفاريت أسلافنا وجنياتهم، وقلما تستحق عبادة تقية أو تبجيل. وهؤلاء الذين يتظاهرون بأنهم متدينون هم في الحقيقة نوع من ملحدين يؤمنون بالخرافات، ولا يعترفون بكائن يتوافق مع فكرتنا عن إله ما. لا المبدأ الأول في العقل أو الفكر: ولا حكومة أو إدارة عليا: ولا وسيلة مقدسة أو غاية في نسيج العالم.

فالصينيون، عندما[1] لا تستجاب صلواتهم، يضربون أوثانهم. وآلهة شعب الأبلاندر هي أية صخرة كبيرة يرون أنها ذات شكل غريب[2]. وقال علماء اللاهوت المصريون، ليفسروا عبادة الحيوان، إن الآلهة التي طاردها عنف الناس الذين ولدتهم الارض، الذين كانوا أعداءها، اضطرت في السابق إلى أن تختفي بمظهر الحيوانات.[3] وكان الشعب الكاني في آسيا الصغرى، الذي عزم على عدم الاعتراف بآلهة غريبة عنه، يتجمع أفراده بانتظام، في فصول معينة، مسلحين بشكل كامل، يضربون الجو برماحهم ويتقدمون في تلك الطريقة إلى حدودهم لطرد الآلهة الغريبة كما قالوا.[4] ولا حتى الآلهة الخالدة، قالت بعض الشعوب الألمانية لقيصر تضاهي سويف.[5]

أمراض كثيرة، يقول ديون في عمل هوميروس لـ فينوس التي جرحها ديوميدس، أمراض كثيرة، يا ابنتي، ابتلت الآلهة بها الإنسان: وأمراض كثيرة، في المقابل، ابتلى بها الناس الآلهة.[6] لا نحتاج إلا أن نفتح أي كتاب لمؤلف كلاسيكي لنجد هذه

(1) Pere le Compte.
(2) Regnard, Voiage de Laponie.
(3) Diod. Sic. lib. i. 86. Lucian. de Sacrificiis. Ovid alludes to the same tradition, Metam. lib. v. l. 321. So also Manilius, lib. iv. 800.
(4) Herodot. lib. i. 172.
(5) Caes. Comment. de bello Gallico, lib. iv.
(6) Lib. v. 382.

التمثيلات العيانية للآلهة، ولونجينوس[1] يلاحظ لسبب وجيه، أن هذه الأفكار عن الطبيعة المقدسة، إذا فهمت حرفياً، فإنها تحتوي على إلحاد حقيقي.

فوجئ بعض الكتاب[2] بأن معاصي أريستوفانيس كان يجب أن تُغتفَر، ليس هذا فحسب بل مُثِّلت علناً وصفق لها الأثينيون استحساناً، شعب يعتقد بالخرافات كثيراً وغيور جداً على الدين العام، إلى درجة أنه، في ذلك الوقت، حكم على سقراط بالموت لميله إلى الشك المتخيل. لكن هؤلاء الكتاب لا يأخذون في الحسبان، أن الصور المضحكة المألوفة، التي مثَّل بها ذلك الشاعر الساخر الآلهة، بدلاً من إظهارها غير مقدسة، كانت الأضواء الحقيقية التي تخيل بها القدماء مقدساتهم. فأي سلوك يمكن أن يكون أكثر إجراماً أو وضاعة، من فعل جوبتر في أمفيتريون؟ ومع ذلك فتلك المسرحية، التي مثلت مآثره النبيلة، افترضت أنه يتقبلها كثيراً، إلى درجة أن السلطات العامة مثلتها دائماً في روما، عندما كان الطاعون أو المجاعة أو أية كارثة عامة تهدد الدولة.[3] فقد افترض الرومان، أنه، مثل كل الفاسقين الطاعنين في السن، سيُسَّر كثيراً باستعراض حفلاته

[1] Cap. ix.
[2] Pere Brumoy, Theatre des Grecs & Fontenelle, Histoire des Oracles.
[3] Arnob. lib. vii. 507 H.

السابقة في الشجاعة والقوة، وأنه لا يوجد موضوع أكثر ملاءمة، يمكن أن يغري خيلاءه وزهوه.

وكان اللاسيديمونيانيون من شعب اسبارطة، كما يقول زينوفون،[1] يضعون دائماً طلبات استرحامهم مبكراً في الصباح، ليتقدموا على أعدائهم، و، لأنهم المحامون الأولون، يكونون السباقين إلى إغراء الآلهة لصالحهم. ويمكننا أن نجمع من سينيكا،[2] أنه كان عادياً، بالنسبة للمنذورين في المعابد، أن يعملوا على الفوز باهتمام الشماس أو القندلفت للحصول على مقعد قريب من صورة الإله، لتكون الأفضل سماعاً في الصلوات والدعوات إليه. ورمى سكان مدينة صور، عندما حاصرهم الإسكندر، السلاسل على تمثال هرقل، لمنع ذلك الإله من أن يخذلهم ويلتحق بصفوف العدو.[3] وأغسطس، لأنه فقد أسطوله مرتين بسبب العواصف، منع نبتون من أن يُحمَل في موكب مع بقية الأرباب، وتوهم، أنه قد انتقم لنفسه على نحو وافٍ بتلك الوسيلة.[4] وبعد وفاة جيرمانيكوس، غضب الناس من آلهتم إلى حدّ أنهم رجموها في معابدهم وشجبوا علناً الولاء لها.[5]

---

(1) De Laced. Rep. 13.
(2) Epist. xli.
(3) Quint. Curtius, lib. iv. cap. 3. Diod. Sic. lib. xvii. 41.
(4) Suet. in vita Aug. cap. 16.
(5) Id. in vita Cal. cap. 5.

لم يتخيل أي وثني أو مؤمن بتعدد الآلهة أن يعزو أصل الكون ونسيجه إلى هذه الكائنات غير الكاملة. فـ هزيود، الذي احتوت كتاباته، مع كتابات هوميروس، على نظام السماء القانوني،[1] إن هزيود، أزعم، يفترض أن الآلهة والناس تحدروا على قدم المساواة من قوى مجهولة في الطبيعة.[2] وفي كل مكان في مبحثه عن أصل الآلهة، باندورا هي المثال الوحيد للخلق أو نتاج اختياري، وهي أيضاً شكّلتها الآلهة ببساطة على الرغم من بروميثيوس، الذي زوّد الناس بالنار المسروقة من السماء،[3] في الحقيقة يبدو أن علماء اللاهوت القدماء، في كل مكان اعتنقوا، بكل ما للكلمة من معنى، فكرة التوليد بدلاً من الخلق أو التشكيل، والتي يجب بالتالي أن تؤخَذ بالحسبان في التفكير بأصل هذا الكون.

ووجد أوفيد، الذي عاش في عصر علمي، وعلمه الفلاسفة مبادئ الخلق المقدس للعالم أو تشكيله، أن هذه الفكرة لا تتوافق مع الميثولوجيا الشعبية، التي يقدمها، فيتخلى عنها، بطريقة مفككة ومنفصلة عن نظامه. queisquis fuit ille Decorum[4] أيما كان الإله، كما يقول، فإنه بدد الشواش

(1) Herodot. lib ii. 53. Lucian, Jupiter confutatus, de luctu, Saturn, &c.
(2) Hes. Opera and Dies. l. 108.
(3) Theog. l. 570.
(4) Metamorph. lib. i. l. 32.

وجلب النظام إلى الكون. هو يعرف أنه لا يمكن أن يكون ساتورن، ولا جوبيتر، ولا نبتون، أو أيّ إله من الآلهة الوثنية. لم يعلمه نظامه اللاهوتي شيئاً عن ذلك الموضوع ، وهو لم يفصل في هذه القضية أيضاً.

لا يقدم ديودورس سيكولس،[1] الذي بدأ عمله بتعداد الآراء الأكثر عقلانية المتعلقة بأصل العالم، إشارة إلى إله أو عقل ذكي، على الرغم من أنه كان جلياً من تاريخه، أنه أكثر ميلاً للاعتقاد بالخرافات من الدين. وفي مقطع آخر،[2] متحدثاً عن الشعب الإخثيوفاجي، أحد الشعوب في الهند، كما يقول، لوجود صعوبة كبيرة في تحديد نسبهم، يجب أن نستنتج أنهم من سكان البلد الأصليين، من دون أية بداية لذريتهم، يتكاثر عرقهم من الأزل، كما لاحظ بعض الفيزيولوجيين في معالجة أصل الطبيعة. "لكن في موضوعات مثل هذه"، يضيف المؤرخ، "تتجاوز القدرة البشرية، وقد يحدث، أن من يتحدثون أكثر، يعرفون أقل؛ ويصلون إلى مظهر خادع للحقيقة في تأملاتهم، بينما يكونون بعيدين جداً من الحقيقة والواقع.

(1) Lib. i. 6 et seq.
(2) Lib. iii. 20.

شعور غريب في عيوننا، لابد أن يعتنقه كل متدين مُعتَرَف به ومتحمس.[1] لكن السؤال المتعلق بأصل العالم الذي دخل إلى المنظومات الدينية، أو عالجه اللاهوتيون، في زمن مضى حدث مصادفة. الفلاسفة وحدهم صنعوا مهنة من تقديم منظومات من هذا النوع؛ وهؤلاء أنفسهم فكروا باللجوء إلى عقل ما أو ذكاء متفوق، ليكون هو السبب الأول لكل الأشياء، في وقت متأخر جداً. وكان ذلك بعيداً من أن يكون وثنية تحظى بالاحترام في تلك الأيام لتفسر أصل الأشياء من دون إله ما، إلى درجة أن ثاليس وآناكسيمينس وهيروقليطس وغيرهم، الذين اعتنقوا ذلك النظام لنشأة الكون، مروا من دون مساءلة، في حين أن آناكساغوراس، المؤمن الأول من دون شك بين الفلاسفة، ربما كان الأول الذي اتهم بالإلحاد.[2]

---

[1] المؤلف نفسه، الذي يمكنه هكذا أن يوضح منشأ العالم من دون إله، يحترمها غير ورعة ليفسر الأسباب المادية، وحوادث الحياة العامة والزلازل والسيول والعواصف؛ ويعزو بخشوع هذه إلى غضب جوبيتر أو نبتون. برهان جلي، منه يستمد أفكاره عن الدين. راجع lib. xv. c. 48 p. 364 Ex edit. Rhodomanni.

[2] سيكون سهلاً أن نقدم سبباً، لماذا طاليس وآناكسيمادر، وهؤلاء الفلاسفة الأوائل، الذين كانوا في الحقيقة ملحدين، ربما كانوا متزمتين جداً في العقيدة الوثنية؛ ولماذا آناكسارغوراس وسقراط، مع أنهما ملحدان حقيقيان، يجب بشكل طبيعي، في الأزمنة القديمة، أن
--

لقد أخبرنا سيكستس إمريكوس،[1] أن أبيقور، عندما كان ولداً يقرأ مع معلمه الأشعار التالية لِـ هزيود:

الأقدم بين الكائنات، برز الشواش أولاً؛

بعد ذلك، امتدت الأرض رحبة، مكاناً للجميع؛

أظهر الطالب الشاب أولاً عبقرية محبة البحث، بسؤاله، **ومن أين جاء الشواش؟** لكن معلمه أُخبره أن عليه أن يلجأ إلى الفلاسفة حلّ هذه الأسئلة. ومن هذه الإيماءة، ترك أبيقور فقه اللغة والدراسات الأخرى كلها ليذهب إلى ذلك العلم، الذي منه وحده توقع الاقتناع في ما يتعلق بتلك الموضوعات السامية.

لم يكن محتملاً أن يدفع الناس العاديون أبحاثهم إلى هذا الحد، أو يستخلصوا من التفكير بأنظمة دينهم؛ في حين أن علماء

يكونوا هامتين غير محترمين. قوى الطبيعة العمياء المنفلتة، إذا كان بإمكانها أن تنتج الناس، تستطيع أن تنتج أيضاً كائنات مثل جوبيتر ونبتون، اللذين كونهما الكائنين الأكثر قوة وذكاء في العالم، سيكونان موضعين معلومين للعبادة. لكن حيث يوجد ذكاء أعلى، السبب الأول لكل شيء، يُعترَف، هذه الأشياء النزوية، إذا وجدت على الإطلاق، يجب أن تظهر تابعة ومعتمدة، وبالنتيجة تستبعد من منزلة الآلهة أفلاطون (...) يحدد هذا السبب للاتهام الذي وقع على آناكساغوراس، أي، رفضه قدسية النجوم والكواكب والأشياء الأخرى.

(1) Adversus Mathem, lib. 480.

اللغة وعلماء اللاهوت، كما نرى، نادراً ما قاموا باختراق كبير. وحتى الفلاسفة، الذين لجؤوا إلى هذه الموضوعات، صدقوا عن طيب خاطر على هذه النظرية الأكثر كمالاً، وسلموا بالأصل المشترك للآلهة والبشر من العتمة والشواش، من النار أو الماء أو الهواء، أو أي شيء افترضوا أنه هو العنصر السائد.

ولا كان ذلك عن أصلهم الأول فقط، أنهم افترضوا أن الآلهة تعتمد على قوى الطبيعة. ففي كل لحظة من فترة وجودها كانوا يخضعون لسلطان القدر أو المصير. فكروا بقوة الضرورة، قال أغريبا للشعب الروماني، تلك القوة التي يجب أن يخضع لها حتى الأرباب.[1] واليافع بليني،[2] يتفق مع هذه الطريقة في التفكير، ويخبرنا، أنه وسط العتمة والرعب والفوضى التي تلت الانفجار الأول لـ فيسوفيوس، استنتج كثيرون، أن الطبيعة كلها ذاهبة إلى الدمار، وأن الآلهة والبشر سيهلكون في خراب عام واحد.

إنها لكياسة غامرة، حقاً، إذا بجلّنا باسم الدين مثل هذا النظام الناقص للاهوت، ووضعناه بمستوى ما مع الأنظمة اللاحقة، التي تأسست على مبادئ ماركوس أوريليوس وبلوتارك وبعض الرواقيين والأكاديميين الآخرين، مع أنها أكثر دقة من

(1) Dionys. Halic. lib. vi. 54.
(2) Epist. lib. vi.

الاعتقاد الخرافي الوثني، لأن تكون جديرة بلقب التوحيد الجدير بالاحترام. لأنه إذا كان لاهوت الوثنيين يشبه النظام الأوربي القديم للكائنات الروحية، الذي استبعد الرب والملائكة واستبقى الجنيات والعفاريت؛ يمكن أن يقال عن عقيدة هؤلاء الفلاسفة ببساطة أنها تستبعد الرب ولا تبقي إلا الملائكة والجنيات.

القسم الخامس

أشكال مختلفة لتعدد الآلهة: الحكاية الرمزية وعبادة البطل

لكن المسألة هي، بصورة رئيسة، عملنا الحالي أن نفكر ملياً بتعدد الآلهة الشامل لدى العامة، وأن نقتفي مظاهره المختلفة في ضوء طبيعة الإنسان، التي نشأت منها.

كل من يتعلم بالبرهان، وجود قوة ذكية غير مرئية، يجب أن يستنتج ذلك من التصميم المثير للإعجاب في الأشياء الطبيعية، ويجب أن يفترض أن العالم يجب أن يكون عمل ذلك الكائن المقدس، الذي هو السبب الأصلي لكل الأشياء. لكن الوثني من العامة، البعيد جداً من الاعتراف بتلك الفكرة، يؤله كل جزء في الكون، يرى كل منتجات الطبيعة الجلية، هي بذاتها آلهة كثيرة حقيقية. الشمس والقمر والنجوم، هي كلها آلهة وفقاً لمنظومته: فالينابيع تسكنها الحوريات والأشجار تسكنها

حوريات الغابات: حتى القرود والكلاب والقطط وحيوانات أخرى غالباً ما تصبح مقدسة في عينيه، وتفتنه بتبجيل ديني. وهكذا، مهما يكن ميل البشر قوياً للاعتقاد بقوة ذكية خفية في الطبيعة، فإن ميلهم قوي، بالمثل، لتركيز انتباههم على أشياء حسية مرئية وللتوفيق بين هذين الميلين المتعارضين، يُدفَعون إلى توحيد القوة الخفية مع شيء مرئي ما.

إن توزيع المجالات الواضحة المعالم بين آلهة عديدة ملائم أيضاً لإبداع حكاية رمزية ما، جسدية وأخلاقية، تدخل منظومات الآلهة المتعددة لعامة الناس. فطبيعي أن يُمثَّل إله الحرب غاضباً وعنيفاً ومتهوراً: وإله الشعر متأنقاً ومهذباً وأليفاً: وإله التجارة، لاسيما في الأزمنة الأكثر قدماً، لصاً مخادعاً. إن الحكايات الرمزية المفترضة في ملاحم هوميروس ومهتمين آخرين باللاهوت، كما أرى، غالباً ما كانت متوترة، لأن الناس الحسيين ميالون بالكامل إلى رفضها واعتبارها ببساطة نتاج وهم وخيال النقاد والمعلقين. لكن أن يكون للحكاية الرمزية في الحقيقة مكان في اللاهوت الوثني فهذا أمر لا شك فيه حتى في التفكير الأدنى. فكيوبيد بن فينوس، وربات الفن بنات ميموري، وبروميثيوس، الأخ الحكيم، وإبيميثيوس الأحمق، وهيجيا أو ربة الصحة المتحدرة من إيسكولابيوس أو رب الجسد: من لا يرى، في تلك، وفي أمثلة أخرى كثيرة، الآثار البسيطة للحكاية الرمزية؟

عندما يفترض أن يشرف الرب على أي عاطفة أو حدث أو نظام أفعال، فغالباً ما يكون متعذراً ألا تمنحه النسب والصفات والمغامرات الملائمة لقدراته ونفوذه المفترض وأن تعتمد على ذلك التماثل والمقارنة، التي من الطبيعي أن تتوافق كثيراً مع عقل الإنسان.

في الحقيقية، إن الحكايات الرمزية الصحيحة تماماً، يجب ألا نتوقع أنها نتاج الجهل والاعتقاد بالخرافات، ليس ثمة عمل عبقرية نُفّذ بنجاح يتطلب يداً أكثر رقة، أو كان أكثر ندرة. فأن يكون الخوف والرعب ابني مارس هو عمل صائب، لكن لماذا من خلال فينوس؟[1] وأن تكون هارموني بنت فينوس فهو عمل مألوف، لكن لماذا من خلال مارس؟[2] وأن يكون النوم شقيق الموت هو شيء مناسب، لكن لماذا يصفه بأنه متيم بإحدى إلاهات الحسن؟[3] وما دام اللاهوتيون القدماء وقعوا في أخطاء جسيمة وملموسة، فليس لدينا بالتأكيد سبب لأن نتوقع مثل هذه الحكايات الرمزية المتقنة المكتملة، كما حاول بعضهم أن يستنتج من قصصهم.

(1) Hesiod. Theog. l. 935. Hesiod. and Plut. in vita Pelop. 19.
(2) Hesiod. and Plut. in vita Pelop.
(3)19 .Iliad. xiv. 267.

لقد أُغريَ لوكريشيوس ببسطة بالمظهر القوي للحكاية الرمزية، الذي تمكن ملاحظته في القصص الوثنية. هو أولاً يقدم نفسه إلى فينوس كأنه يقدم نفسه إلى من يولد القوة، وينفخ الحياة ويجددها ويسبغ الجمال على الكون: لكن سرعان ما خانته الميثولوجيا في التشوشات وهو يصلي إلى تلك الشخصية الرمزية لتهدئة غضب حبيبها مارس: فكرة لم تُستخرجَ من الرمز، بل من الدين الشعبي، الذي لم يستطع لوكريشيوس كونه أبيقورياً أن يعترف بذلك بثبات.

إن آلهة عامة الناس لا تتفوق على الكائنات البشرية إلا قليلاً، التي، حيث يتأثر الناس بمشاعر قوية من التبجيل أو الامتنان لأي بطل أو محسن شعبي، لا شيء يمكن أن يكون أكثر طبيعية من تحويله إلى رب، وملء السموات، بعد هذا الأسلوب، بمدد مستمر من البشر، يُفترَض أن يكون معظم آلهة العالم القديم ذات زمن أناساً ونُظر إلى تأليههم أنه نتاج إعجاب الناس بهم وحبهم لهم. والتاريخ الحقيقي لمغامراتهم، الذي أفسدته التقاليد، ورُفع بسبب سماته المدهشة، غدا مصدراً وفيراً للخرافة، لاسيما في مرورها عبر أيدي الشعراء والبلاغيين والرهبان، الذين وضعوا تحسيناتهم، واحداً بعد آخر، على ما يثير إعجاب ودهشة عامة الناس الجاهلة.

وجاء الرسامون والنحاتون ليأخذوا نصيبهم من الربح في الأسرار المقدسة، وصقلوا الأفراد بتمثيلاتهم الحسية لآلهتهم التي ألبسوها أشكال الإنسان، الأمر الذي زاد ولاء العامة لها وحدد هدفها. ربما كان ذلك بسبب الحاجة إلى هذه الفنون في العصور المتوحشة والهمجية، أن عبد الناس النباتات والحيوانات وحتى الأشياء البهيمية غير المنظمة، وبدلاً من أن تكون بلا شيء محسوس للعبادة، أضاف القدسية الى مثل هذه الأشياء الخرقاء. هل كان بإمكان أي نحات من سوريا، في الأزمنة القديمة، أن ينحت شكلاً صحيحاً لـ أبولو، والصخرة المخروطية، هيليوغابلوس، لولم تصبح هدف مثل هذا التبجيل العميق وتلقيها كتجلّ لإله الشمس.[1]

نفى مجلس أريوباغوس ستيلبو لتأكيده أن تمثال منيرفا في القلعة لم يكن إلهة، بل من عمل فيدياس، النحات.[2] ما هي درجة العقل التي يجب توقعها في المعتقد الديني لدى العامة في أمم أخرى، عندما يستمتع الأثينيون والأريوباجيتيسيون بمثل هذه المعتقدات الخاطئة الجسيمة؟

---

(1) Herodian. lib. v. 3, 10. يمثل كيورتيوس جوبيتر آمون كإله من النوع نفسهPessinuntians. العرب و عبدوا أيضاً حجارة لا شكل لها وغير مصقولة كإله لهم... لقد تجاوزت حماقتهم حماقة المصريين كثيراً.

(2) Diod. Laert. lib. ii. 116.

هذه إذن المبادئ العامة لعبادة عدة آلهة، التي تجد أساساً لها في طبيعة البشر، والقليل أو لا شيء يعتمد على النزوة والمصادفة. مثل هذه الأسباب التي تمنح السعادة أو التعاسة، هي، في العموم، غير معروفة إلا قليلاً وغير مؤكدة كثيراً، يحاول اهتمامنا القلق أن يحرز فكرة محددة عنها؛ ولا يجد وسيلة أفضل من تمثيلها كقوى حرة ذكية، مثلنا، لكنها متفوقة علينا إلى حد ما بالقوة والحكمة. إن التأثير المحدود لهذه القوى، وقربها الشديد من مواطن ضعف الإنسان يقدم التوزيع والتقسيم الجديدين لسلطاتها، وبذلك تتسبب في نشوء الحكاية الرمزية. ومن الطبيعي أن تؤله هذه المبادئ نفسها المخلوقات البشرية المتفوقة في القوة أو الشجاعة أو الفهم وتولد عبادة البطل، بالإضافة إلى التاريخ الخرافي والتقاليد الميثولوجية في كل أشكالها الوحشية التي لا تُحصى. ولأن الذكاء الروحي غير المرئي هو أيضاً متطور جداً بالنسبة لفهم العامة، يلحقه الناس بشكل طبيعي بتمثيل حسي ما إما مثل أجزاء أكثر روعة من الطبيعة، أو نصباً أو تماثيل وصوراً، التي هي أشكال عصر أكثر صقلاً لمقدساته.

غالباً ما يتفق الوثنيون جميعاً، في أي عصر أو بلد، على هذه المبادئ العامة والمفاهيم، وحتى الشخصيات الخاصة والمجالات، التي يحددونها لعبادتهم، ليست مختلفة جداً.[1] فالمسافرون

[1] See Caesar of the religion of the Gauls, De bello Gallico, lib. vi. 17.

والفاتحون الإغريقيون والرومانيون وجدوا آلهتهم في كل مكان من دون مشقة كبيرة، وقالوا، هذه هي مركوري وتلك فينوس؛ هذا مارس وذلك نبتون، بغض النظر عن الاسم الذي قد أعطي لتلك الأرباب الأجنبية. والربة هرتا لدى أسلافنا السكسون يبدو أنها ليست أخرى، تبعاً لتاسيتس[1] غير الأم تيلوس لدى الرومان، وكان حدسه دقيقاً تماماً.

---

[1] De Moribus Germ. 40.

القسم السادس

نشوء الاعتقاد بإله واحد من الاعتقاد بآلهة متعددة

عقيدة الإله الأعلى الواحد، خالق الطبيعة، عقيدة قديمة جداً وقد نشرت نفسها في أمم كبيرة وكثيرة السكان، وبينها اعتنقها أناس من كل المراتب والطبقات: لكن من يظن أنها مدينة بنجاحها إلى القوة السائدة لتلك الأسباب غير المرئية، التي تأسست عليها من دون شك، سيُظهر نفسه ضئيل المعرفة بجهل وحماقة الناس وتحيزهم، الذي لا دواء له، لصالح معتقداتهم الخرافية الخاصة. حتى في هذه الأيام، وفي أوروبا، اسأل أي شخص من العامة، لماذا يؤمن بخالق كلي القدرة للعالم، لن يشير إلى جمال الأسباب النهائية، التي يجهلها تماماً: لن يمد يده ويدعك تتأمل طراوة وتشكيلة مفاصل أصابعه، انثنائها جميعاً بطريقة واحدة، والثقل الموازن الذي تلقاه من الإبهام، النعومة

والأجزاء اللحمية داخل يده، مع كل الظروف الأخرى، التي تعالج ذلك العضو الملائم للاستخدام، الذي رُبط به قدرها. لقد تعود على هذا منذ زمن طويل، وينظر إليها بفتور ولامبالاة. سوف يخبرك عن الموت المفاجئ وغير المتوقع لمثل هذا: وقوع وكدمة مثل هذا الآخر: الجفاف الشديد في هذا الموسم: البرد والأمطار في فصل آخر. وهو يعزو ذلك إلى فعل العناية الإلهية المباشرة: ومثل هذه الأحداث، كما لو أنها، مسببات وجيهة، هي الصعوبات الرئيسة للتسليم بالذكاء المتفوق، هي لديها البراهين الوحيدة له.

أنكر موحدون كثر، حتى الأكثر حماسة وتهذيباً، عناية إلهية ما خاصة، وأكدوا، أن العقل المطلق أو المبدأ الأول للأشياء كلها، الذي يمتلك قوانين عامة ثابتة، تحكم الطبيعة، يعطي سياقاً حراً مستمراً، ولا يعوق، في كل مناسبة، الوضع المستقر للأحداث بإرادات خاصة. وكما يقولون، من الصلة الجميلة، والتقيد الصارم بالقواعد الراسخة، نستنتج البرهان الرئيس للتوحيد، ومن هذه المبادئ نفسها يمكننا الرد على الاعتراضات الأساسية ضدها. لكن معظم البشر لم يفهموا ذلك، أي، حيثما لاحظوا أحداً يعزو الأسباب كلها إلى أسباب طبيعية، وينزع التوسط الخاص لإله ما، يكونون ميالين للشك بأنه اقترف الكفر الأكثر شدة. يقول اللورد بيكون قليل من الفلسفة يجعل الناس ملحدين، وقدر كبير منها يحملهم على القبول بالدين.

بالنسبة للناس، كونهم تعلموا آراء خرافية، لوضع تشديد على مكان خطأ، عندما يخذلهم ذلك، ويكتشفون، بقليل من التفكير، أن منهج الطبيعة نظامي ومتماثل، يتداعى إيمانهم برمته وينهار إلى حطام. لكن إذا تعلموا، بمزيد من التفكير، أن هذه النظام والاتساق هو البرهان الأقوى على التخطيط والذكاء الأعلى، فإنهم يعودون إلى ذلك الإيمان، الذي هجروه وهم الآن قادرون على إنشائه على أساس أكثر رسوخاً وأكثر متانة.

الاضطرابات في الطبيعة، والفوضى والأعاجيب والمعجزات، مع أنها العكس الأكبر لخطة مدير حكيم، تسم البشرية بالمشاعر الأقوى للدين، أسباب الأحداث البادية إذن أكثر الأشياء غموضاً وغير القابلة للتفسير. فالجنون والسخط والغضب والخيال المتقد، على الرغم من أنها تغوص بالناس إلى ما هو أقرب إلى مستوى الوحوش، فهي، لسبب مماثل، غالباً ما تفترض أن تكون الترتيبات الوحيدة، التي يمكننا أن نتواصل من خلالها مباشرة مع الرب.

يمكننا أن نستنتج، بالتالي بعد كل شيء أنه، ما دام عامة الناس، في الأمم، الذين اعتنقوا عقيدة التوحيد، فإنهم لا يزالون ببنونها على مبادئ غير عقلانية وخرافية، ولا يتوصلون إلى ذلك الرأي وفق أية عملية تقوم على البرهان، بل بتسلسل تفكير محدد أكثر ملاءمة لعبقريتهم وأهليتهم.

يمكن أن يكون هذا قد حدث قبل، في أمة وثنية، أنه على الرغم من اعتراف الناس بوجود مجموعة آلهة محدودة، إلا أنه ثمة رب واحد ما، يجعلونه بطريقة خاصة موضوع عبادتهم وتأليههم. ويمكنهم إما أن يفترضوا، أنه، في توزيع السلطة والمناطق بين الآلهة، أُخضِعت أمتهم لسلطان ذلك الإله الخاص، أو في تبسيط الأشياء المقدسة إلى نموذج أرضي، يمكن أن يمثلوا أحد الأرباب كأمير أو حاكم أعلى على البقية، الذي، على الرغم من أنه من الطبيعة نفسها، يحكمهم بسلطة، مثل تلك التي يمارسها سلطان على رعاياه وتابعيه. وبالتالي، سواء كانوا يعدون هذا الرب نصيرهم الخاص، أو أنه سلطان السماء العام، سيسعى مريدوه بكل وسيلة إلى تقديم أنفسهم في رعايته، ويفترضون أنه سيكون مسروراً، مثلهم، بتمجيده وإطرائه، ولن يدخروا مديحاً أو مبالغة في مخاطبته. وبقدر ما تغدو مخاوف الناس وآلامهم أكثر إلحاحاً، يبتكرون أنواعاً جديدة للتزلف، وحتى من بزَّ سابقه في نفخ ألقَاب معبوده، فإنه متيقن أن خلفه سيبزه في ألقاب من التمجيد أكثر جدة وأبهة. وهكذا يتقدمون، حتى يصلوا إلى اللانهاية نفسها، إلى ما لا ارتقاء أبعد منه: وذلك حسن، إذا كانوا، في الكفاح للوصول أبعد، وتمثيل البساطة الرائعة، لا يجرون وراء لغز لا يمكن حلّه، ولا يدمرون طبيعة إلههم الذكية، التي عليها وحدها يمكنهم تأسيس أية عبادة أو تأليه عقلاني.

ومع أنهم يقيدون أنفسهم بفكرة كائن كامل مثالي، خالق العالم، ويتوافقون، بالمصادفة، مع مبادئ العقل والفلسفة الصحيحة؛ إلا أنهم لا يسترشدون إلى تلك الفكرة بالعقل، لأنهم غالباً لا يملكون القدرة على فعل ذلك، لكن بتأليه أكثر المعتقدات الشعبية خرافة والخوف منها.

غالباً ما نجد، بين الأمم البربرية، وحتى أحياناً بين الأمم المتحضرة، أنه، عندما تُستنفَذ كل ضروب الإطراء تجاه الأمراء الاستبداديين، وعندما تطرى الخصائص الإنسانية إلى الحد الأقصى، فإن حاشيتهم الخانعة تمثلهم، أخيراً، باعتبارهم مقدسين حقيقيين، ويقدمونهم إلى الشعب كأشياء مؤلهة. لذلك، كم هو طبيعي أكثر، أن إلهاً ما محدوداً، يفترض في البداية أنه هو المسبب المباشر للجيد والسيئ الخاص في الحياة فقط، ينبغي أن يمثل في النهاية صانعاً للملك ومغيّراً للكون؟

حتى حيث ترسخت هذه الفكرة عن الإله الأعلى، مع أنه من الطبيعي أن تقلص كل عبادة أخرى، وتحط من شأن كل شيء مبجل، لكن، إذا كانت أمة ما تستمتع برأي إله تابع، أو قديس أو ملاك؛ فخطاباتها إلى ذلك الكائن تسمو عليهم تدريجياً وتتخطى التأليه المطابق لإلههم الأعلى. فمريم العذراء، قبل التحقيق بدورها في عصر الإصلاح، ارتقت، من كونها

مجرد امرأة صالحة، إلى اغتصاب مناقب كثيرة لله كلي القدرة: ويترافق الرب والقديس نيقولا في كل صلوات ودعوات الموسكوفيين.

وبالتالي إن الرب، الذي، بسبب الحب، حوّل نفسه إلى ثور، لينقل أوروبا، والذي، بسبب الطموح، يطيح بأبيه من عرشه، ساتورن، أصبح أوبتيموس مكسيموس لدى الوثنيين. وهكذا أصبح إبراهيم وإسحاق ويعقوب، الرب الأعلى أو يهوه اليهود.

لم يكن اليعاقبة، الذين رفضوا مفهوم النقاوة (الطهارة)، يوماً سعداء في عقيدتهم، على الرغم من أن الأسباب السياسية حفظت الكنيسة الرومانية من شجبها. والفرع الكورديلي من الطائفة الفرانسيسكانية فاز بالشعبية كلها. لكن في القرن الخامس عشر، كما تعلمنا من البولينفيليبيريين،[1] أن كورديلياً إيطالياً دافع عن أنه خلال الأيام الثلاثة عندما أُدخل المسيح، انقسمت طبيعته الثنائية، وأن طبيعته البشرية لم تكن شيئاً حقيقياً للتأليه، خلال تلك الفترة. من دون فن العرافة، يمكن للمرء أن يتكهن، إن كان تجديفاً شديداً ومدنساً ليفشل الناس بحرمانه، إنها مناسبة الأذى الشديد لجزء من اليعاقبة، الذين حصلوا على بعض التعويض لسوء طالعهم في الحرب حول مفهوم الطهارة.

[1] Histoire abregee, p. 499.

والمتدينون، بدلاً من التخلي عن الميل إلى التأليه، ورطوا أنفسهم في الحماقات والتناقضات الأكثر شدة في كل العصور.

هوميروس، في أحد مقاطعه، يدعو أوسيانوس وثذيس الأبوين الحقيقيين لكل الأشياء، على نحو منسجم مع الميثولوجيا الراسخة وتقاليد الإغريق؛ لكنه، في مقاطع أخرى، لم يستطع أن يتحمل مديح جوبيتر، الإله الحاكم، بتلك التسمية المهيبة، ووفقاً لذلك يسميه أبا االأرباب والناس. إنه ينسى، أنه كل المعابد، وكل الشوراع كانت مليئة بالأسلاف والأعمام والأخوال والأخوة والأخوات لهذا الجوبيتر؛ الذي لم يكن في الحقيقة الواقعية شيئاً ذا بال، بل قاتل أبيه ومدّعياً ومغتصب عرش. والتناقض المماثل هو الشيء الممكن ملاحظته في هزيود، وبدقة أقل مما يمكن اغتفاره، أن نيته المعلنة كانت تقديم المنشأ الحقيقي للأرباب.

هل كان ثمة دين (ويمكننا أن نعتقد بأن أتباع الديانة المحمدية في هذا التنافر) لوّن أحياناً الإله بالألوان الأكثر سمواً، باعتباره خالق السموات والأرض؛ وأحياناً يحطّ من شأنه إلى مستوى المخلوقات البشرية تقريباً في قواه ومؤهلاته؛ في حين أنه في الوقت نفسه ينسب ذلك إلى عجزه وأهوائه ومحاباته، ذات النوع الأخلاقي: ذلك الدين، بعد أن انقرض، يجب أن يُعرَض

كمثال لتلك التناقضات، التي تبرز من المفاهيم العامية والطبيعة الجلية للعيان عن البشر، التي تتعارض مع ميلهم الدائم تجاه الإطراء والمبالغة. لا شيء في الحقيقة سيثبت على نحو أكثر قوة من الأصل المقدس لأي دين، من إيجاد (ولحسن الحظ هي الحال مع المسيحية) أنه بقدر ما يكون خالياً من أي تناقض، يكون شيئاً عرضياً بالنسبة للطبيعة البشرية.

القسم السابع

تأكيد هذه العقيدة

يبدو أكيداً، أنه، على الرغم من أن الأفكار الأصلية للعامة تمثل الإله كائناً محدوداً ولا تعدّه إلا سبباً خاصاً للصحة أو المرض، الوفرة أو الفاقة، الازدهار أو المعاناة، إلا أنه عندما تلح الأفكار الأكثر روعة عليهم، فإنهم يحترمونها خشية أن يرفض موافقتهم. هل ستقول، إن إلهك متناه وأنه محدود في كماله، ويمكن أن تتخطاه قوة كبيرة، ويخضع لمشاعر الناس وآلامهم ونقائصهم، له بداية، وقد تكون له نهاية؟ وهذا ما لا يمكنهم تأكيده، بل التفكير أنه الأكثر أماناً أن تتوافق مع أدعيتهم، يسعون، من خلال غمره بالمشاعر الطيبة والولاء، إلى السعادة معه. وكتأكيد على هذا، يمكننا أن نلاحظ، أن موافقة عامة الناس هي، في هذه الحالة، شفهية ببساطة، وأنهم غير مؤهلين

على تصوّر تلك الخصائص السامية، التي يعزونها في الظاهر إلى الله. إن فكرتهم الحقيقية عنه، على الرغم من لغتهم المنمقة، لا تزال بائسة وسخيفة كما كانت دائماً.

ذلك الذكاء الأصيل، يقول ماجيانس، الذي هو المبدأ الأول في كل الأشياء، يكشف نفسه مباشرة للعقل والفهم وحده؛ لكنه وضع الشمس صورة له في الكون المرئي، وعندما ينشر ذلك النجم المشرق أشعته فوق الأرض وفي السماء، تكون نسخة باهتة من مجده، الذي يستقر في السموات العليا. إذا كنت ستتجو من استياء هذا الكائن المقدس، ينبغي أن تكون حذراً من ألا تضع قدمك العارية على الأرض أبداً وألا تبصق في نار وألا ترمي أي مياه عليها، حتى ولو كانت تحرق مدينة برمتها.[1] من يستطيع أن يجسد كماليات الكلي القدرة؟ يسأل أتباع الديانة المحمدية. حتى أعماله الأكثر نبلاً، إذا قورنت به، ليست إلا غباراً وهراء. إلى أي مدى يجب أن يقصر مفهوم الإنسان عن كمالياته غير المحدودة؟ تتقل بسمته ورضاه الناس إلى سعادة أبدية، ولحفظها لأطفالك، فالطريقة الأفضل هي أن تقطع منهم، وهم رضع، قطعة ضئيلة من الجلد، نحو نصف عرض الفارذنغ (قطعة نقد بريطانية تساوي ربع بنس). خذ قطعتين من

[1] Hyde de Relig. veterum Persarum.

القماش،[1] يقول الرومان الكاثوليك، نحو إنش مربع أو إنش ونصف مربع وضمهما إلى زوايا بخيطين أو قطع من شريط بطول 14 إنش، ضعها على رأسك ودَعْ إحدى قطعتي القماش تستقر على صدرك والأخرى على ظهرك، احفظهما فوق ثوبك: لا يوجد سر أفضل توصي به نفسك لذلك الكائن اللامحدود، الموجود منذ الأزل إلى الأبد.

إن الجيتيين (GETES) الذين يُسَمون بشكل عام الخالدين، من اعتقادهم الراسخ بخلود الروح، كانوا موحدين ورافضين حقيقيين للتثليث. هم أكدوا علناً أن زامولكيس، إلههم، يجب أن يكون الإله الحقيقي الوحيد، وشددوا على أن عبادة كل الشعوب الأخرى يجب توَجُّه إلى مجرد قصص خيالية وكائنات خرافية. لكن هل هُذِّبت مبادئهم الدينية بسبب هذه الذرائع الرائعة؟ كانوا كل خمس سنوات يضحون بإنسان، يرسلونه رسولاً إلى إلههم، ليخبره بحاجاتهم وضروراتهم. وعندما ترعد السماء، كانوا يُستَّفزون بشدة، إلى درجة، يطلقون سهامهم عليه ليعيدوا تحديهم، ويرفضون القتال غير المتكافئ. هذه هي، على الأقل، الرواية التي يقدمها هيرودوت عن الديانة التوحيدية للجيتيين الخالدين.[2]

(1) Called the Scapulaire.
(2) Lib. iv. 94.

القسم الثامن

المدّ والجزر في الاعتقاد بآلهة متعددة والإيمان بإله واحد

إنه لأمر جدير بالملاحظة أن تمتلك مبادئ الدين نوعاً من المدّ والجزر في العقل الإنساني، وأن يكون لدى الناس ميل طبيعي للارتقاء من الوثنية إلى التوحيد، والانحدار ثانية من التوحيد إلى الوثنية. عامة الناس، أي، في الحقيقة، كل الناس، باستثناء قلة قليلة، كونهم جاهلين وغير متعلمين، لا يطوّرون تأملهم إلى السموات أو ينفذون في أبحاثها إلى سر تركيب جسم النبات أو الحيوان إلى حد يكتشفون فيه عقلاً أعلى أو عناية إلهية أصلية، تسبغ النظام على كل جزء في الطبيعة. إنهم يفكرون في هذه الأعمال المثيرة للإعجاب في رؤية أكثر حصرية وذاتية، ويجدون أن سعادتهم وتعاستهم تعتمد على قوة سرية، وعلى تلاقٍ غير مرئي لأشياء خارجية، ويأخذون في الحسبان، بانتباه، الأسباب

المجهولـة، الـتي تحـكـم هـذه الأحـداث الطبيعيـة، وتـوزع الفـرح والألم، الخـير والـشر، بعملـها القـوي، لـكـن الـصامت. ولا تـزال الأسباب المجهولة تناشَد على كل ظهور؛ وفي هـذا المظهـر العـام أو الصورة المشوشة، تـكون الأشياء الدائمة لآمـال الإنـسان ومخاوفه وأمانيه ووعيه. وبـدرجات، خيـال النـاس النـشط، المرتبـك في هـذا المفهـوم المجـرد للأشـياء، بـشأن مـا يـستخدَم باسـتمرار، تبـدأ بمعالجتهـا بطريقـة أكثـر خـصوصية، وإلباسـها أشـكالاً أكثـر ملاءمة لفهمهـا الطبيعـي. إنهـا تمثلهم ليكونـوا كائنـات حساسة وذكيـة، مثـل النـاس، يحثهـا الحـب والكـره والمرونـة مـن خـلال الهبات والتوسلات، بواسطة الـصلوات والأضحيات. من هنـا أصل الدين: ومن هنا أصل الوثنية أو تعدد الآلهة.

لكن الاهتمام بالسعادة المثير للقلق نفسه، الذي يولد فكـرة هذه القـوى غير المرئيـة الذكيـة، لا يـسمح للنـاس أن يبقـوا طـويلاً عنـد المفهـوم البـسيط الأول، باعتبارهـا كائنـات قويـة لكـن محـدودة؛ وسـادة المـصير الإنـساني، لـكـن عبيـد القـدر ومـسار الطبيعـة. لا تـزال صـلوات النـاس ومـدائحهم المبـالغ فيهـا تـنفخ فكرتهم عنها، وتعلي آلهتهم إلى الحـدود القـصوى مـن الكمـال، أخيراً تولـد صـفات الوحـدة واللانهاية والبـساطة والروحانيـة. ولأن هـذه الأفكـار المـصقولة، بطريقـة مـا، أعلـى مـن مـستوى فهـم العامـة، لا تبقـى طـويلاً في نقائهـا الأصـلي، بل تتطلب الـدعم من

فكرة الوسطاء الغرباء أو الوكلاء التابعين، الذين يتوسطون بين الناس وإلهم الأعلى. هؤلاء أنصاف الآلهة أو كائنات وسيطة، تشاطر الناس طبيعتهم أكثر وكونها أكثر ألفة لنا، تغدو الأشياء الرئيسة للتقوى، وبالتدريج تعيد إلى الحياة تلك الوثنية، التي كانت في ما مضى والتي تخلّص منها بصلوات الفيورين ومدائح المخلوقات الخائفة والفقيرة. لكن فيما تهبط هذه الأديان الوثنية كل يوم إلى مفاهيم أكثر غريزية وعامية، فإنها في النهاية تدمر نفسها، وبواسطة التمثيلات التافهة، التي يشكلونها لآلهتهم، تجعل المد يعود ثانية باتجاه التوحيدية. لكن الميل قوي جداً، في هذه الثورة المتعاقبة في عواطف الناس، للعودة إلى الوثنية إلى درجة حتى الحيطة القصوى غير قادرة على منعه عملياً. ومن هنا، كان بعض الموحدين، لاسيما اليهود والمسلمين، مدركين، كما يبدو من استبعادهم لكل فنون النحت والتصوير وعدم سماحهم بالتمثيلات، حتى للشخصيات الإنسانية لأن تُقدَّم بالرخام أو الألوان، خشية أن يتسبب الضعف العام لدى الناس بعودة الوثنية بعد ذلك. فلا يمكن إقناع الناس ضعيفي الفهم بتصوير الإله روحاً صرفة وذكاء كاملاً، ومع ذلك تمنعهم مخاوفهم الطبيعية من أن يعزوا إلى الله أقل شبهة من المحدودية وعدم الكمال. إنهم يتقلبون بين هذه العواطف المتعارضة. لا يزال الضعف نفسه يجرهم إلى الأسفل، من إله روحي كلي القدرة،

إلى إلـه جسدي محدود ، ومن إلـه جسدي ومحدود إلى تمثال أو تمثيل مرئي. والمسعى نفسه إلى العلو لا يزال يدفعهم إلى الأعلى، من التمثال أو الصورة المادية إلى القوة غير المرئية، ومن القوة غير المرئية إلى إله كامل لا محدود، خالق الكون وسلطانه.

القسم التاسع

مقارنة هذه الأديان في ما يتعلق بالاضطهاد والتسامح

بما أن عبادة آلهة متعددة أو الوثنية تأسست بالكامل في تقاليد عامية، فإنها مسؤولة عن هذا الإزعاج الشديد، المتمثل بإجازة أي ممارسة أو رأي، مهما كان بربرياً أو فاسداً، وإعطائه فرصة كاملة، فتجيز أن يُفرَض الخبث على السذاجة، حتى تُستبعَد الأخلاق والإنسانية من الأنظمة الدينية للبشر. وفي الوقت نفسه، فإن الوثنية التي تحظى بهذه الميزة الجلية، أي، بالقوى والوظائف المحدودة لآلهتها، تقبل بشكل طبيعي آلهة الطوائف والأمم الأخرى أن تتشارك بالقدسية وتتقل كل العبادات

والشعائر والطقوس والتقاليد المنسجمة مع بعضها بعضاً.[1] أما عبادة الإله الواحد فإنها النقيض في كل من مزاياها الإيجابية والسلبية. عندما يفترض ذلك النظام إلهاً واحداً وحيداً، وكمال العقل والخير، فعليه، إذا حكم بإنصاف، أن يستبعد كل شيء تافه أو غير عقلاني، أو غير إنساني من عبادته الدينية، ويقدم للناس المثال الأكثر وضوحاً والدوافع الأكثر تحكماً بالعدالة والنزعة الخيرية. هذه الميزات الإيجابية القوية لا تفقد في الحقيقة أهميتها (لأن ذلك غير ممكن)، لكنها بطريقة ما تُقلَّص، بسبب عقبات، نشأت من آثام الناس وأهوائهم. وفي حين يُعترَف بهدف واحد وحيد للتقوى، تُعَدّ عبادة الآلهة الأخرى تافهة وغير ورعة. ليس هذا وحسب، بل يبدو طبيعياً أن وحدة الهدف تتطلب وحدة الإيمان والطقوس، وتقدم أناساً معدين لهذا الغرض بمظهر لتمثيل

[1] فيريوس فلاكوس الذي استشهد بـ بليني، .lib. xxviii. cap. 2 أكد أنه كان مألوفاً للرومان قبل أن يحاصروا أية بلدة أن يناشدوا الرب حامي المكان، وبوعده أنه سيحظى باحترام أكبر من هؤلاء الذي يحظى باحترامهم في الوقت الحاضر، يرشونه لخيانة أصدقائه وأنصاره القدامى. كان اسم الرب الحامي لروما لهذا السبب أخفى لغزاً دينياً كبيراً؛ خشية أن يكون أعداء الجمهورية قادرين، بالطريقة نفسها، أن يجتذبوه إلى خدمتهم. لأنه من الاسم، كما ظنوا، لا شيء من ذلك القبيل يمكن أن يُمارَس. يقول بليني، إن الشكل العام للمناشدة حُفِظ حتى زمنه في شعيرة رؤوساء الكهنة. وقد نقل ماكروبيوس نقل نسختها من الأشياء السرية في سامونيكوس سيرينوس.

خصومهم كوثنيين وأهداف المقدس بالإضافة إلى انتقام الإنسان. لأن كل طائفة هي إيجابية بقدر ما يكون إيمانها الخاص وعبادتها مقبولة بالكامل لله، وكما لا أحد يمكنه أن يتخيل أن الكائن نفسه يجب أن يفرح بطقوس ومبادئ مختلفة ومتعارضة، تقع الطوائف بشكل طبيعي في العداء، وتطلق كل منهما الحماس والحقد المقدسين على الأخرى، العاطفتان الأكثر سخطاً وعناداً لدى الإنسان.

إن الروح المتسامحة لدى الوثنيين، في الأزمنة القديمة والحديثة، شيء واضح جداً لأي شخص، مطلع قليلاً على كتابات المؤرخين أو الرحالة. عندما سئلت عرافة دلفي، ما هي الشعائر أو العبادة الأكثر قبولاً للآلهة؟ أجابت العرافة، تلك التي أنشئت بطريقة قانونية في كل مدينة،[1] وحتى الكهنة كانوا يستطيعون، في تلك العصور، كما يبدو، منح الصفح إلى آخرين في جماعة مختلفة. تبنى الرومان بشكل عام آلهة الشعوب المحتلة، ولم يشكوا أو يفندوا صفات تلك العبادات المحلية والوطنية، في تلك الأراضي التي استقروا فيها. والحروب الدينية واضطهاد الوثنيين المصريين، هي، في الحقيقة، استثناء لهذه القاعدة، وقد فسرها الكتاب القدماء بأسباب فردية جديرة بالاعتبار. كانت

(1) Xenoph. Memor. lib. i. 3, 1.

كائنات مختلفة من الحيوانات هي الآلهة لطوائف شتى بين المصريين، ولأن الآلهة كانت في حرب مستمرة، فإنها ورطت عابديها في النزاع نفسه. فالذين يقدسون الكلاب لم يستطيعوا البقاء في سلام مع من يؤله القطط والذئاب.[1] لكن حيث لم يوجد ذلك السبب، فإن المعتقد الخرافي المصري لم يتعارض كثيراً مع المتخيل السائد، كما عرفنا من هيرودوت،[2] أن أماسيس قدمت مساعدات كبيرة لإعادة بناء معبد دلفي.

إن عدم تسامح كل الأديان تقريباً، التي دافعت عن وحدانية الله هو أمر مثير للانتباه مثل المبدأ المعاكس لدى الوثنيين. فالروح الضيقة المتعنتة لدى اليهود معروفة جداً. وانتشرت المحمدية الطرق الأكثر دموية، وحتى إلى يومنا هذا، ترسل اللعنات، مع أنه ليس بالنار والحطب، إلى كل الطوائف الأخرى. وإذا اعتنق الإنكليز والهولنديون مبادئ التسامح، بين المسيحيين، فإن هذه الخاصة الفردية نشأت من العزم الراسخ للحكم المدني، في معارضة المحاولات المستمرة للرهبان والمتعصبين.

وأغلق أنصار زرادشت أبواب السماء في وجه الجميع إلا المجوس.[3] لا شيء أمكنه أن يعرقل تقدم الفاتحين الفرس أكثر

(1) Plutarch. de Isid. & Osiride. c. 72.
(2) Lib. ii. 180.
(3) Hyde de Relig. vet. Persarum.

من الحماس المتقد لتلك الأمة ضد معابد وتماثيل الإغريق. وبعد الإطاحة بتلك الإمبراطورية نجد الإسكندر، كوثني، يعيد بناء عبادة البابليين، التي أبطلها أمراؤهم السابقون كونهم موحدين.[1] حتى الارتباط الأعمى والوفي لدى ذلك الفاتح بالمعتقد الخرافي الإغريقي لم يمنعه بل هو شخصياً قدّم الأضاحي تبعاً للطقوس والشعائر البابلية.[2]

إن الإيمان بعدة آلهة نزعة اجتماعية قوية، إلى درجة أن القسوة والكراهية البالغة التي تجدها في دين معارض، قلما تكون قادرة على أن تنفرها وتبقيها في منأى عنها. أطرى أغسطس كثيراً تحفظ حفيده كايوس قيصر، عندما مرّ هذا الأخير بالقدس ورتب ألا يقدم أضحياته تبعاً للشريعة اليهودية. لكن لماذا وافق أغسطس على هذا السلوك؟ لأن ذلك الدين الوثني يحترم وضيعي المنشأ وغير المتمدنين وحسب.[3]

يمكنني أن أغامر في التأكيد على أن المفاسد القليلة في الوثنية وتعدد الآلهة أكثر ضرراً للمجتمع من هذا الفساد في التوحيد،[4] عندما بلغ ذروته العليا. إن التضحيات البشرية لدى

---

(1) Arrian. de Exped, lib. iii. 16. ld. lib. vii. 17.
(2) Id. ibid.
(3) Sueton. in vita Aug. c. 93. .
(4) Corruptio optimi pessima . ، " فساد الأفضل هو الأسوأ "

القرطاجيين والمكسيكيين، وأمم غير متمدنة كثيرة،[1] قلما تجاوزت محاكم التفتيش والاضطهاد في مدريد وروما، لأنه على الرغم من أن إراقة الدم يمكن أن يكون أقل كثيراً في الحالة الأولى من الثانية، فإنه بالإضافة إلى هذا، أقول، إن الأضحيات البشرية، كونها تُختار بالقرعة، أو لبعض الميزات الخارجية، لا تؤثر على بقية المجتمع إلى درجة كبيرة. حيثما تكون الفضيلة والمعرفة وحب الحرية هي المزايا التي تستحضر انتقام المحققين الميت، وعندما يُطرَد، يترك المجتمع في ذروة خزي الجهل والفساد والعبودية. إن قتل امرئ بطريقة غير قانونية، بإرادة طاغية أكثر ضرراً من موت ألف بسبب طاعون أو مجاعة أو أية كارثة معروفة.

في معبد ديانا في أريسيا، قرب روما، من كان الكاهن المقتول يكون، كان صاحب الحق القانوني في التنصيب هو

[1] معظم الأمم قد وقعت في هذا الخطأ من التضحيات الإنسانية، ومع ذلك، ربما، هذا المعتقد غير الورع لم يسد كثيراً في أية أمة متحضرة إذا ما استثنينا القرطاجيين. لآن شعب صور سرعان ما أبطلها. الضحية تصوَّر أنها هدية، وكل هدية تسلم إلى ربهم بتدميرها وجعلها غير مفيدة للناس، يحرق ما هو صلب، وصبّ السائل وقتل الحي. ومن أجل الحاجة إلى الطريقة الأفضل لجعلها خدمة، نقوم نحن بإلحاق الأذى بأنفسنا، ونتخيل أننا بذلك نعبر، على الأقل، عن ود نيتنا الطيبة القوية وعبادتنا. وبالتالي ورعنا المستأجر يخدعنا، ونتخيل أنه يخدع الرب أيضاً.

الذي يليه.[1] مؤسسة فردية جداً! لأنه، مهما كانت الخرافات العامة همجية ودموية بالنسبة لعامة الناس، فعادة ما تنقلب لصالح النظام المقدس.

[1] Strabo, lib. v. Sueton. in vita Cal. 35.

القسم العاشر

مقارنة هذه الأديان في ما يتعلق بالشجاعة والذل

من المقارنة بين التوحيد والشرك، يمكننا أن نشكل بعض الملاحظات الأخرى، التي تؤكد أيضاً الملاحظة العامية، أن فساد الأشياء الأفضل يفسح المجال لبروز الأسوأ.

حيث يُمثَّل الله بأنه متفوق على الإنسانية إلى ما لا نهاية، فإن هذا الاعتقاد، مع أنه صحيح جملة وتفصيلاً، إلا أنه، عندما يُضَمّ إلى مخاوف خرافية، يغدو عرضة للغوص بالعقل الإنساني إلى أسفل دركات الخضوع والذل وتمثيل الفضائل الرهبانية بإماتة الشهوات والندم والتواضع والمعاناة السلبية هي الخصائص الوحيدة المقبولة بالنسبة له. لكن حيثما يُدرَك الأرباب أنها ليست متفوقة على الإنسان كثيراً، وأن الكثير منها تطور من تلك

المرتبة الدنيا، نكون أكثر راحة، في مخاطبتها، ويمكن حتى، من دون تجديف، أن نطمح أحياناً إلى منافستها ومحاكاتها. وبالتالي، الفعالية والروح والشجاعة والشهامة وحب الحرية وكل المزايا التي تعظم إنساناً ما.

الأبطال في الوثنية يشبهون القديسين في البابوبة والدراويش الصالحين في الإسلام. أمكنة هرقل وثيسيوس وهيكتور ورميولس، يشغلها الآن دومينيك وفرانسيس وأنطوني وبنديكت. وبدلاً من قتل الحيوانات الغريبة وإخضاع الجبابرة والدفاع عن الوطن الأم، يغدو الجلد بالسياط والصيام والجبن والتواضع والخضوع والطاعة العبودية هي وسيلة إحراز المكارم السماوية بين البشر.

كان أحد الإغراءات الكبيرة للإسكندر التقي في حملاته الحربية هو منافسة هرقل وباخوس، اللذين تظاهر بالتفوق عليهما تماماً.[1] وبراسيداس، ذلك الاسبارطي الكريم والنبيل، بعد سقوطه في المعركة، منحه سكان أمفيبوليس التكريمات البطولية لأنه تولى الدفاع عنهم.[2] وفي العموم، رُفِع مؤسسو الدول والمستعمرات بين الإغريقيين إلى هذه المكانة الدنيا من الألوهية، من هؤلاء الذين حصدوا ثمرة أعمالهم.

---

(1) Arrian passim.
(2) Thucyd. lib. v. 11

وكان هذا وراء ملاحظة ماكيافيللي،[1] أن عقائد الدين المسيحي (يعني الكاثوليكية، لأنه لم يعرف عقائد أخرى) ذكت الشجاعة السلبية والمعاناة، وأخضعت الروح الإنسانية، وهيأت الناس للعبودية والخنوع فحسب. وهي ملاحظة، صحيحة بالتأكيد، إذا ما كانت هناك ظروف أخرى كثيرة في المجتمع الإنساني تتحكم بسجايا وخصائص دين ما.

أمسك براسيداس فأرة، ولأنها عضته، تركها تذهب. وقال، لا شيء جدير بالازدراء، لكن كيف يمكن أن تكون آمنة، إذا كانت لا تملك إلا الشجاعة للدفاع عن نفسها.[2] وسمح بيلارمين بأناة وتواضع للبراغيث وحشرات طفيلية أخرى أن تعيش على جسده. وقال، ستكون السماء مكافأة لنا كرمى عذاباتنا: لكن هذه الكائنات البائسة لا شيء تنتظره إلا أن تستمتع بحياتها الراهنة.[3] هذا هو الفرق بين مبادئ البطل الإغريقي والقديس الكاثوليكي.

(1) Discorsi. lib. vi.
(2) Plut. Apopth.
(3) Bayle, Article BELLARMINE.

القسم الحادي عشر

مقارنة هذه الأديان في ما يتعلق بالعقل أو الشيء المنافي للعقل

هنا ملاحظة أخرى للغرض نفسه، وحجة جديدة على أن فساد الأشياء الأفضل يولد الأشياء الأسوأ. إذا فحصنا، من دون تحيز، الميثولوجيا الوثنية القديمة، كما قدمها الشعراء في قصائدهم، لن نجد فيها أي شيء شرير منافٍ للعقل، كما يمكن أن نكون ميالين إلى الاعتقاد في البداية. أين الصعوبة في تصور، أن القوى أو المبادئ نفسها، مهما كانت، التي شكلت هذا العالم المرئي والناس والحيوانات، أنتجت أيضاً كائنات من المخلوقات الذكية، من مادة أكثر دقة وأوسع سلطة من البقية؟ بما أن هذه الكائنات قد تكون نزوية وانتقامية وعاطفية وشهوانية، يتم إدراكها بسهولة، ولا أي ظرف أكثر ميلاً، بين

أنفسنا، لتوليد هذه الآثام، من ترخيص السلطة المطلقة. وفي اختصار، النظام الميثولوجي برمته طبيعي للغاية، أي، في التشكيلة الواسعة للكواكب والعوالم، التي يحتويها هذا الكون، يبدو أكثر احتمالاً، لأنه، في هذا المكان أو الآخر، إنه في الحقيقة، يتحقق في التنفيذ.

الاعتراض الرئيس على هذا في ما يتعلق بهذا الكوكب، هو، أنه لم يؤكد ذلك أي عقل أو سلطة منصفة. إن التقليد القديم، الذي أصر عليه الرهبان واللاهوتيون الوثنيون، ليس إلا أساساً ضعيفاً؛ ونقلوا أيضاً عدداً كبيراً من التقارير المتناقضة، التي تدعم كل منها سلطة متكافئة، إلى درجة أصبح من المستحيل أن تثبت أفضلية بينها. مجلدات عديدة، لذلك، يجب أن تحتوي كل كتابات الرهبان الوثنيين الجدلية: ولذلك ينبغي أن يكون لاهوتها كله قصصاً تقليدية وممارسات خرافية أكثر منه برهاناً وجدلاً فلسفياً.

لكن حيثما يشكل التوحيد المبدأ الأساسي لأي دين شعبي، وأن العقيدة منسجمة إلى درجة تبدو عقلانية، تكون تلك الفلسفة ميالة إلى ربط نفسها بنظام لاهوتي مثل هذا. وإذا تمّ احتواء قواعد ذلك النظام في كتاب مقدس، مثل القرآن، أو قررته أية سلطة مرئية، مثل البابا الكاثوليكي، يواصل

المفكرون التأمليون بشكل طبيعي موافقتهم واعتناقهم النظرية التي انغرست في نفوسهم من خلال تعليمهم المبكر، والتي تمتلك أيضاً درجة ما من التماسك والانسجام. لكن لأن هذه المظاهر أكيدة، كلها، لتثبت أنها مضللة، ستجد الفلسفة نفسها سريعاً مقيدة على نحو غير متكافئ برابطتها الجديدة، وبدلاً من تنظيم المبادئ، وهي تتقدم معاً، تُحرَف عند كل منعطف لتخدم أغراض الخرافة. لأنه على الرغم من عدم التناسق الذي لا يمكن تجنبه، الذي يجب أن يُسوَّى ويُعدَّل، يمكن للمرء أن يؤكد باطمئنان، أن الميثولوجيا الشعبية، لاسيما المدرسية، تمتلك نوعاً من شهية للعبثية والتناقض. وإذا لم تذهب تلك الميثولوجيا أبعد من المنطق والفطرة، فإن عقائدها ستبدو سهلة ومألوفة. فيجب رفَع الدهشة بالضرورة: وإثارة الغموض: والسعي إلى العتمة والإبهام: ومنح أساس من استحقاق للأنصار المخلصين، الذين يرغبون بفرصة لقهر عقلهم المتمرد بالإيمان بالسفسطات الأكثر غموضاً.

يؤكد التاريخ الديني هذه التأملات بما فيه الكفاية. عندما يبدأ نقاش، يتظاهر بعض الناس بقدرتهم على التنبؤ بالمسألة. يقول هؤلاء، أي الرأيين يكون الأكثر تدناداً للمعنى البسيط يكون هو الغالب بالتأكيد، حتى حيث لا تكون المصلحة العامة للنظام بحاجة إلى ذلك القرار. ومع أن لوم البدعة قد يكون، لبعض الوقت، متبادلاً بين المتحاورين، فإنه يستقر في النهاية إلى

جانب العقل والمنطق. أي شخص، يُزعَم، أنه يمتلك قدراً كافياً من التعليم في هذا النوع من معرفة تعريف الأريوسية والبلاجوسية (نكران الخطيئة الأصلية) والأرسثوسية (للدولة السلطة العليا على الكنيسة) والسوسينية (رفض عقيدة الثالوث المقدس وألوهية المسيح)، والسابلية واليوتيكية (الإيمان بالطبيعة الواحدة للمسيح) والنسطورية (انفصال طبيعتي المسيح الجسدية والإلهية) وعقيدة الإرادة الوحيدة، وغيرها من دون الإشارة إلى البروتستانتية، التي لا يزال مصيرها غير مؤكد، ستُقنَع بصحة هذه الملاحظات. وهكذا يغدو النظام أكثر منافاة للعقل في النهاية، الذي كان ببساطة عقلانياً وفلسفياً في البداية.

لمعارضة سيل الدين المدرسي بمثل هذه الأقوال الخرافية، أنه من المستحيل للشيء نفسه أن يكون وألا يكون، وأن الكل أكبر من الجزء، وأن اثنين وثلاثة يساويان خمسة، مثل الزعم بوقف المحيط بنباتات الأهوار. هل ستواجه العقل الوثني باللغز المقدس؟ لا عقاب أعظم لجحودك هذا. والنيران نفسها، التي كانت توقَد للهرطقات، ستخدم أيضاً في إبادة الفلاسفة.

القسم الثاني عشر

مقارنة هذه الأديان في ما يتعلق بالشك والإيمان

نقابل كل يوم أشخاصاً متشككين جداً بما يخص التاريخ، إلى درجة أنهم يؤكدون أنه من المستحيل بالنسبة لأية أمة أن تؤمن بمثل هذه المبادئ المنافية للعقل في الوثنية الإغريقية والمصرية، وفي الوقت نفسه عقائديون جداً في ما يخص الدين، إلى درجة أنهم يظنون أن السخافات نفسها يجب ألا توجد لدى طائفة أخرى. تمتع الملك الفارسي قمبيز بمثل هذه التحيزات، وسخر بلا تقية، بل جرح، آبيس، الإله الأكبر للمصريين، الذي بدا لأحاسيسه الدنيوية مجرد عجل كبير مرقط. لكن هيرودوت يعزو على نحو حكيم هذه الهجمة من المشاعر إلى جنون حقيقي أو اضطراب في الدماغ: وإلا، يقول المؤرخ، لن يوجه إهانة صريحة إلى أي عبادة راسخة. لأن على رأس ذلك، يتابع المؤرخ، كل الأمم

راضية بعباداتها الخاصة، وكل منها يعتقد أنه يمتلك أفضلية على كل الأمم الأخرى.

يجب الاعتراف بأن الرومان الكاثوليك طائفة مثقفة جداً، وأنه لا توجد كنيسة، إلا كنيسة انكلترة، يمكن أن تنازعها على أنها الكنيسة المسيحية الأكثر ثقافة: لكن ابن رشد، العربي الشهير، الذي، من دون شك، سمع بالمعتقدات الخرافية المصرية، يعلن، أنه من كل الأديان، الأكثر سخافة وهراء، هو ذلك الدين الذي يأكل أتباعه إلههم بعد أن يصنعوه.

اعتقد، في الحقيقة، أنه لا توجد عقيدة في الوثنية، لا تقدم فرصة عادلة للسخرية مثل هذه ذات الوجود الحقيقي: لهذا هي سخيفة جداً، إلى درجة أنها تتملص من قوة البرهان. وهناك بعض القصص السارة من هذا القبيل، التي، مع أنها بطريقة ما وثنية، إلا أنها بشكل عام يرويها الكاثوليكيون أنفسهم. ذات يوم، قيل إن أحد الرهبان، من دون انتباه، قدَّم قطعة نقدية سقطت مصادفة بين رقائق العشاء الرباني بدلاً من رقاقة السر المقدس، وقد انتظر المتناول بقلق بعض الوقت، متوقعاً أنها ستذوب على لسانه: لكنه بعد أن وجدها لا تزال كاملة، أخرجها. وصرخ إلى الراهب، أتمنى أنك لم ترتكب خطأ ما: أتمنى ألا تكون قد أعطيتني الله الأب: إنه قاسٍ جداً وخشن جداً إلى درجة لا يمكن ابتلاعه.

وجنرال مشهور، في ذلك الوقت في الخدمة الموسكوفية، جاء إلى باريس للاستشفاء من جروحه، وجلب معه شاباً تركياً، كان قد أخذه أسيراً. فكر بعض أطباء السوربون (الذين هم جميعاً إيجابيون مثل دراويش القسطنطينية) أنه أمر يدعو للشفقة، أن يعاقب التركي المسكين باللعنة الأبدية بسبب حاجته إلى التعليم، وألحوا على مصطفى أن يتحول إلى المسيحية، ووعدوه، لتشجيعه، بالكثير من الخمر اللذيذ في هذا العالم، وبالجنة في العالم الآخر. كانت هذه الإغراءات أقوى من أن تُقاوَم، ولذلك، لأنه عُلِّم ولُقِّن جيداً، وافق أخيراً على أن يتلقى الأسرار المقدسة والمعمودية والعشاء الرباني. الكاهن، في كل حال، ليجعل كل شيء مؤكداً وراسخاً، ظل يتابع تعليمه وبدأ في اليوم التالي بالسؤال المعتاد، كم يوجد إله؟ ولا واحد على الإطلاق، أجاب، بنيديكت، لأن ذلك اسمه الجديد. كيف! ولا واحد على الإطلاق! صرخ الكاهن. فقال المهتدي حديثاً الصادق، لتتأكد، لقد أخبرتني أنه لا يوجد إلا إله واحد في النهاية: والبارحة أكلته.

مثل هذه المعتقدات هي معتقدات إخواننا الكاثوليك. لكننا معتادون على هذه المعتقدات، إلى درجة أننا لا نبدي استغرابنا منها: مع أنه في زمن قادم، ربما يغدو صعباً أن تقنع بعض الأمم، أن أي إنسان، أو كائن يمشي على رجلين يمكن أن يكون قد

اعتنق مثل هذه المبادئ في زمن مضى. وذلك ألف لواحد، لكن هذه الأمم نفسها سيكون لديها شيء ما كامل منافٍ للعقل في عقائدها الخاصة، التي تمنحها موافقتها الضمنية والدينية الأشد.

نزلت ذات مرة في باريس في الفندق نفسه الذي ينزل فيه سفير من تونس، كان قد أمضى عدة سنوات في لندن، كان عائداً إلى بلاده عبر ذلك الطريق. وفي أحد الأيام لاحظت أن سعادة السفير المراكشي يمتع نفسه تحت الرواق بمعاينة العربات الفخمة وهي تمر عابرة المكان؛ وعندما صادف أن مرّ من تلك الطريق بعض الرهبان الكابوشيين، الذين لم يروا تركياً قط، وهو، من جانبه، مع أنه تعود على الملابس الأوروبية، لم يرَ قط الشكل الغريب لراهب كابوشي: ولم تكن هناك تعبيرات إعجاب متبادلة، تبعث فيهم الدافع تجاه بعضهم بعضاً. لو دخل السفير في نزاع مع هؤلاء الفرنسيسكان لكانت مفاجأتهم العكسية من الطبيعة نفسها. وهكذا يقف الناس جميعاً يحدق أحدهما بالآخر؛ وليس من ضرب على رؤوسهم، لأن عمامة الأفريقي ليست جيدة أو سيئة كزي مثل قلنسوة الأوروبي. إنه رجل شريف جداً، قال أمير سالي Sallee، متحدثاً باسم دي رويتر de RUYTER. والأمر المؤسف أنه كان مسيحياً.

كيف يمكنك أن تعبد الكراث والبصل؟ سنفترض أن أحد أساتذة السوربون قال ذلك لأحد رهبان الساي Sais. إذا عبدناها، يرد الآخر، في الأقل، لا نأكلها، في الوقت نفسه. لكن ما الشيء الغريب في عبادة القطط والكلاب؟ يقول الدكتور المثقف. إنها على الأقل جيدة مثل جثث الشهداء أو عظامهم المتعفنة، يرد على خصمه الذي لا يقل ثقافة منه. ألست مجنوناً، يلح الكاثوليكي، ليقطع كل منهما حنجرة الآخر بسبب تفضيل ملفوفة أو خيارة؟ نعم، يقول الوثني، أعترف بذلك، إذا كنت ستعترف، بأن الأكثر جنوناً هم هؤلاء، الذين يتقاتلون بشأن التفضيل بين مجلدات السفسطة، التي لا تساوي عشرة آلاف منها في القيمة ملفوفة أو خيارة.[1]

---

[1] شيء غريب أن الدين المصري، مع أنه منافٍ للعقل، لا بد أنه يحمل شبهاً كبيراً مع الدين اليهودي إلى درجة أن الكتاب القدماء، حتى ذوي العبقرية الكبار لم يكونوا قادرين على ملاحظة أي فرق بينهما. لذلك ما هو جدير بالملاحظة أن كلاً من تاسيتوس وسويتنوس، عندما يشيرون إلى أن مرسوم مجلس الشيوخ، في عهد تيبيريوس، عندما أبعد بموجبه المهتدون الجدد من المصريين واليهود من روما، وعومل هذا الدينان بشكل معلن بالطريقة نفسها، ويبدو أنه حتى المرسوم نفسه قد أسس على تلك الفرضية. "Tiber. c. 36" هؤلاء الوثنيون الحكماء، مراقبين شيئاً ما في الجو العام، وعبقرية وروح هذين الدينين أن يكونا الشيء نفسه، احترموا الفرق بين عقائدهم متحمسين جداً لأن يكونوا جديرين بأي اهتمام.

كل متفرج سيحكم بسهولة (لكن لسوء الحظ، المتفرجون قلة) أنه، إذا كان لا شيء ضرورياً لإنشاء أي نظام شعبي، بل فضح سخافات الأنظمة الأخرى، يمكن لكل نصير في كل معتقد خرافي أن يقدم سبباً كافياً لعماه وتعلقه المتعصب بالمبادئ التي تعلمها. لكن من دون معرفة واسعة جداً، يقوم عليها هذا التأكيد (وربما، أفضل من دونها)، لا توجد حاجة إلى مخزون كافٍ من الحماسة الدينية بين البشر. يعطي ديودورس سيكيولس[1] مثالاً جديراً بالملاحظة لهذا الغرض، الذي كان هو نفسه شاهداً عياناً عليه. بينما كانت مصر ترزح تحت الخوف الشديد من اسم الرومان، لإدانة جندي من أحد الفيالق بمعصية التدنيس لقتله قطة من دون عمد، نهض الشعب كله ضده بغضب شديد، ولم تنجح جهود الأمير بإنقاذه. أنا مقتنع بأن مجلس الشيوخ والشعب في روما، لم يكونا، عندئذٍ، شديدي الدقة في ما يخص العبادات الوطنية، فهم بصراحة بالغة، بعد وقت قليل من ذلك، انتخبوا أغسطس لمنزلة في المدارات السماوية، وكان سيطيح بعرش كل رب في السماء، كرمى له، إذا بدا أنه يرغب بذلك. يقول هوراس: Presens divus habebitur AUGUSTUS,

[1] 59 Lib. i. 83.

تلك نقطة هامة جداً: وفي أمم وعصور أخرى، لم يُحكَم على الظرف نفسه بلامبالاة.[1]

يقول تولي[2]: على الرغم من قداسة ديننا، لا توجد جريمة أكثر شيوعاً عندنا من تدنيس المقدسات: هل سمع أحد قبل أن مصرياً انتهك معبد قطة، أو أبو منجل أو تمساح؟ ليس هناك من تعذيب، لن يتحمله أي مصري، يقول المؤلف نفسه في مكان آخر،[3] لئلا يلحق الأذى بطائر أبو منجل أو قطة أو كلب أو تمساح. وبالتالي ما يلاحظه درايدن صحيح تماماً:

مهما كان أصل ربهم الأعلى،

من القطعان أو الحجارة أو من نسب بلدي آخر،

فإن دفاع خدمه عنه باسل كما لو أنه

وُلِد من ذهب مطروق.

(أبسالوم وأتشيتوفل)

---

[1] عندما أخذ الملك لويس الرابع عشر عهداً على نفسه أن يحمي كلية كليرمونت اليسوعية أمر المجتمع أن توضع أسلحة فوق البوابة وينزلوا الصليب ليفسحوا الطريق له "الذي أعطى مناسبة الحكمة التالية:
Sustulit hinc Christi, posuitque insignia Regis: Impia gens, alium nescit habere Deum.
[2] De Nat. Deor. i. 29.
[3] Tusc. Quaest. lib. v. 27.

أجل، بقدر ما تكون المواد التي يتكون منها الرب وضيعة يكون احتمال الإخلاص له أقوى اهتياجاً في صدور مناصريه المضللين. إنهم يبتهجون في عارهم ويصنعون فضيلة بعبادتهم، وكرمى له، في تحدي كل سخرية وازدراء أعدائه. ينخرط عشرة آلاف صليبيي للحرب تحت الرايات المقدسة، وحتى النصر الصريح في تلك الأجزاء من دينهم، يعدّها خصومهم الأكثر مدعاة للوم.

وللعلم يحدث، أن يكون لديّ، صعوبة في منظومة الميثولوجيا المصرية؛ بينما في الحقيقة، تكون منظومات عدة من ذلك النوع خالية كلية من الصعوبات. هذا جلي، من طريقتها في التوالد، فقد يملأ زوجان من القطط، في خمسين عاماً، مملكة كاملة بمواليدهما؛ وإذا ظل ذلك التبجيل الديني يُقدَّم لها، فسيكون، في عشرين سنة إضافية، أن تجد في مصر رباً أسهل من أن تجد إنساناً، التي يقول بترونيوس أنها كانت موجودة في بعض أقسام إيطاليا؛ لكن الآلهة يجب في النهاية أن تجوِّع الناس كلهم وتدع نفسها من دون رهبان ولا أنصار. لذلك، من المحتمل، أن هذه الأمة الحكيمة، هي الأوفر حظاً في الأزمنة القديمة بالسياسة الحصيفة والعقلانية، التي تنبأت بمثل هذه العواقب الخطيرة، وحصرت عبادتها كلها للآلهة البالغة النمو تماماً، واستخدمت الحرية للتخلص من البذرة المقدسة والأرباب الصغار،

من دون أي تردد أو ندامة. وهكذا إن ممارسة إفساد العقائد الدينية، لخدمة المصالح المؤقتة، ليس، في أي حال، اختراعاً للعصور الحديثة.

يتظاهر المثقف الفيلسوف فارو، وهو يتحدث في الدين، بأنه لا يقدم أي شيء أبعد من الاحتمالات والمظاهر: كانت هذه فطرته السليمة وحصافته! لكن أوغستين العاطفي والمتحمس، يهين الروماني النبيل على شكه وتحفظه ويعلن إيمانه بالمعتقد والعهد الأكثر دقة.[1] لكن أحد الشعراء الوثنيين المعاصرين للقديس، يرى بطريقة عبثية أن النظام الديني للآخر مزيف جداً، إلى درجة أنه لم يستطع حتى أن يجتذب الأطفال السذج للإيمان به، كما يقول.[2]

هل الأمر غريب، عندما تكون الأخطاء شائعة جداً، أن تجد الجميع إيجابيين ودوغمائيين؟ وأن الحماسة غالباً ترفع معدل الخطأ؟ يقول سبارتيان: وفي هذه الفترة بدأ اليهود حربهم لأنهم مُنِعوا من ممارسة الختان.[3]

إذا كانت ثمة أمة أو زمن، فقدَ فيه الدين العام كل سلطته على البشر، يمكننا أن نتوقع، أن الإلحاد في روما، خلال عصر

(1) De civitate Dei, l. iii. c. 17.
(2) Claudii Rutilii Numitiani iter, lib. i. l. 394.
(3) In vita Adriani. 14.

شيشرون أقام عرشه علانية، وأن شيشرون CICERO نفسه، في كل قول وفعل، سيكون هو الداعية الأبرز له. لكن الأمر يبدو، أنه، مهما كانت الحريات الشكلية التي يمكن للرجل العظيم أنه تبناها، في كتاباته أو مناقشاته الفلسفية، فقد كان يتجنب، في حياته العامة، تهمة الوثنية والتجديف. حتى أمام أسرته وزوجته تيرنتشيا، التي وثق بها جداً، كان يريد أن يبدو متديناً مخلصاً، ولا تزال هناك رسالة، موجهة إليها، يرغب فيها جدياً أن يقدم أضحية لأبولو وإيسكولابيوس، امتناناً لاستعادته صحته.[1]

أما تقوى بمبي POMPEY فقد كانت أكثر إخلاصاً: لقد أعار في كل سلوكه، خلال سنوات الحرب الأهلية، اهتماماً كبيراً للكهانة والأحلام والتنبؤات.[2] وكان أغسطس موصوماً بمعتقدات خرافية من كل نوع. وكما رُوِيَ عن ملتون، أن موهبته الشعرية كانت تتدفق بيسر وغزارة في الربيع، وهكذا لاحظ أغسطس أن موهبته في رؤية الأحلام لم تكن في حالتها المثالية في ذلك الفصل، ولا كان من الممكن الاعتماد على أحلامه بقية فصول السنة. وكان الإمبراطور العظيم والقادر أيضاً يقلق إلى أقصى الحدود، عندما يحدث أن يغيّر حذاءيه ويضع قدمه اليمنى

(1) Lib. xiv. epist. 7.
(2) Cicero de Divin. lib. ii. c. 24.

في الفردة اليسرى.[1] باختصار، لا يمكن الشك بذلك، لكن أنصار العقيدة الخرافية الراسخة في العصور القديمة كانوا كثيرين في كل الدول، كما هم أنصار الدين الجديد في الوقت الحاضر. كان تأثيره شاملاً، مع أنه لم يكن كبيراً جداً. كما أن الكثير من الناس وافقوا عليه، مع أن موافقتهم لم تكن قوية جداً ودقيقة وأكيدة ظاهرياً.

ويمكننا أن نلاحظ، أنه، على الرغم من الأسلوب الدوغمائي المتغطرس للمعتقد الخرافي، والإيمان الراسخ للمتدينين، في كل العصور، فقد كان أكثر تأثيراً في الحقيقة الواقعية، ولم يقترب، في أية درجة إلى الاعتقاد أو القناعة الصلبة، التي تحكم قضايانا العامة. لا يجرؤ الناس على الاعتراف، حتى في سرهم، بالشكوك التي يفكرون بها حول هذه الموضوعات: هم يصنعون فضيلة بالإيمان الضمني، ويتنكرون لأنفسهم عن كفرهم الحقيقي، بالتأكيدات القوية والتعصب الأكثر إيجابية. لكن الطبيعة قاسية جداً بالنسبة لمساعيهم، وتعاني ليس من الغموض والضوء الواهن، الذي تضفيه هذه المناطق الظليلة، على معادلة الانطباعات القوية، التي تقدمها الفطرة السليمة والتجربة العامة. يستند المسار المعتاد لسلوك

---

[1] Sucton Aug. cap. 90, 91, 92. Plin. lib. ii. cap. 5.

الناس إلى كلماتهم ومظاهرهم، إلى درجة أن موافقتهم في هذه القضايا هي عملية غير محسوبة للذهن بين عدم الإيمان والإيمان، لكنها تقترب من الأول أكثر من الثاني.

لذلك ما دام ذهن الإنسان يبدو نسيجاً رخواً ومضطرباً، إلى درجة أنه حتى في الوقت الحاضر، عندما يجد أشخاص كثر مصلحة في الاستخدام المتواصل للإزميل والمطرقة عليها، لكن هل كانوا غير قادرين على نقش عقائد لاهوتية بأي أثر دائم؛ كم كانت هذه هي الحال في الأزمنة القديمة أكثر منها الآن، عندما كان القائمون بالوظيفة المقدسة أقل كثيراً بالمقارنة؟ لا عجب، أن تكون المظاهر عندئذٍ غير متماسكة وأن يكون الناس، في بعض المناسبات، ربما ظهروا كفرة أشداء، وأعداء للدين الراسخ، دون أن يكونوا في الواقع هكذا؛ أو في الأقل، من دون أن يعرفوا أفكارهم الشخصية في ذلك الخصوص.

ثمة سبب آخر، جعل الدين القديم أكثر تفككاً من الدين الحديث، هو، أن الأول كان شفهياً والثاني كتابياً، والشفهي في الأول كان معقداً، متناقضاً، و، في مناسبات عديدة، ريبياً؛ لذلك ربما لا يمكن أن يقلّص إلى أي معيار أو شريعة، أو يتحمل أي مواد حاسمة في الإيمان. كانت قصص الآلهة لا تعد ولا تحصى مثل الأساطير البابوية، ومع أن الجميع، غالباً، اعتقد بجزء من

هذه القصص، إلا أنه لم يكن بإمكان الجميع أن يصدقوها أو يعرفوها: بينما في الوقت نفسه كان على الجميع أن يعترف بأنه لا يوجد جزء يستند إلى أساس أفضل من البقية. وكانت تقاليد المدن والأمم المختلفة أيضاً، في مناسبات كثيرة، تتعارض مباشرة، وليس ثمة سبب يمكن أن يُحَدَّد لتفضيل أحدها على آخر. وكما كان هناك عدد لا يحصى من القصص، في ما يتعلق بالتقليد الذي لم يكن إيجابياً على الإطلاق؛ ولم يكن التسلسل منطقياً، من المبادئ الأكثر جوهرية في الإيمان، إلى تلك القصص الخيالية المهلهلة والمشكوك فيها. لذلك، بدا الدين الوثني يتبدد مثل سحابة، متى اقترب منه المرء وتفحصه جزءاً جزءاً. ولم تكن ثمة إمكانية لأن تؤكده أية عقائد أو مبادئ راسخة. ومع ذلك فإن هذا لم يحل بين عامة الناس وبين إيمان منافٍ للعقل إلى هذا الحد؛ لأنه متى سيكون الناس عقلانيين؟ علاوة على ذلك، جعلهم هذا أكثر خطأ وتردداً في الدفاع عن مبادئهم، وفي حالات ذهنية معينة كان أكثر ملاءمة لإنتاج بعض الممارسات والآراء، التي لها مظهر الإلحاد المؤكد.

إلى ذلك يمكننا أن نضيف، أن الحكايات الخرافية في الدين الوثني كانت، بذاتها، خفيفة وسهلة ومألوفة، من دون شياطين أو بحار من الكبريت أو أي شيء يمكن أن يصيب الخيال بالرعب. من يمكنه أن يمتنع عن الضحك عندما يفكر

بقصص حب مارس وفينوس MARS and VENUS، أو حفلات سمر جوبيتر وبانJUPITER and PAN الغزلية؟ وفي هذا الصدد، كان ذلك ديناً شاعرياً حقيقياً، لو لم يمتلك إلى حد ما الكثير من الخفة للأنواع الأكثر رزانة من الشعر. نجد أن شعراء الملاحم المحدثين قد تبنوه، ولا تحدث هذه بحرية وعدم توقير للآلهة، التي اعتبرتها قصصاً خيالية، أكثر مما فعل الأقدمون لهذه الأشياء الحقيقية في عبادتهم.

والاستنتاج هو بلا شك صحيح، ذلك، لأنه ما لم يؤثر نظام دين عميقاً في عقول شعب ما، يجب أن يرفضه بطريقة إيجابية كل الناس ذوي الفطرة السليمة، وأن المبادئ المعارضة، على الرغم من تحيزات التعليم ترسخت، بشكل عام، بالحجة والاستنتاج. أنا لا أعرف، لكن استنتاجاً معاكساً يمكن أن يكون أكثر احتمالاً. بقدر ما يظهر أي كائن خرافي أقل إزعاجاً وغطرسة، سيثير غضب الناس ونقمتهم أقل، أو يشركهم في التحقيقات التي تهتم بالأساس الذي تقوم عليه وأصلها. هذا في الوقت نفسه واضح، لأن إمبراطورية الإيمان الديني كلها في ما يخص الفهم مضطربة ومتقلقلة، تخضع للأمزجة المختلفة وتعتمد على الأحداث الجارية، التي تثير الخيال. لا يوجَد فارق إلا في الدرجات. قديم ما سيضع قدراً على عدم التقوى وعلى معتقد

خرافي ما بالتناوب، عبر خطاب كامل.[1] وغالباً ما يفكر الحديث بالطريقة نفسها، مع أنه قد يكون أكثر حذراً في تعبيره.

يخبرنا لوسيان بصراحة،[2] كان الناس يحكمون على كل من لم يعتقد بالخرافات الوثنية الأكثر مدعاة للسخرية بأنه ملحد وغير تقي. لأي غرض، في الحقيقة، استخدم ذلك الكاتب المقنع قوة ذكائه كلها وهجائه ضد الدين الوطني، لو لم يكن ذلك الدين قد آمن به بشكل عام أبناء بلده ومعاصروه؟

ويعترف ليفي[3] صراحة، مثل أي لاهوتي في الوقت الحاضر، بالميل إلى الشك العام في عصره، لكنه يشجبه بعدئذٍ بشدة. من

[1] شاهد شاهد هذا المقطع الجديد بالملاحظة لتاسيتس :

'Praeter multiplices rerum humanarum casus caelo terraque prodigia & fulminum monitus & futurorum praesagia, laeta tristia, ambigua manifesta. Nec enim unquam atrocioribus populi Romani cladibus, magisve justis indiciis approbatum est, non esse curae Diis securitatem nostram, esse ultionem.' Hist. lib. i. 3. Augustus's quarrel with Neptune is an instance of the same kind. Had not the emperor believed Neptune to be a real being, and to have dominion over the sea, where had been the foundation of his anger? And if he believed it, what madness to provoke still farther that deity? The same observation may be made upon Quintilian's exclamation, on account of the death of his children, lib. vi. Praef.

[2] Philopseudes. 3.

[3] Lib. x. cap. 40.

يستطيع أن يتخيل، أن المعتقد الخرافي الوطني، الذي استطاع أن يضلل رجلاً عبقرياً، لن يُفرَض على عامة الناس؟

منح الرواقيون حاكمهم كثيراً من الألقاب الرائعة وحتى غير التقية، أن حاكمهم هو الوحيد الغني والحر والملك ومثل الآلهة الخالدة. ونسوا أن يضيفوا، أنه لم يكن أقل حصافة وفهماً من امرأة عجوز. لأنه بالتأكيد لا شيء يمكن أن يكون أكثر مدعاة للشفقة من المشاعر، التي تتمتع بها تلك الطائفة في ما يتعلق بالقضايا الدينية، في حين أنهم يتفقون جدياً مع العرافين العامين، إلى درجة، أنه عندما ينعب الغراب من اليسار، يكون ذلك فألاً جيداً، لكنه فأل سيء، عندما ينعب نوع آخر من الغربان (الغداق) من الناحية نفسها. كان باناتيوس PANAETIUS هو الرواقي الوحيد، بين الإغريقيين، الذي كان أكثر تشككاً بالعرافين والعرافة.[1] يخبرنا ماركوس أنطونيوس[2] أنه هو نفسه تلقى تحذيرات كثيرة من الآلهة أثناء نومه. ذلك صحيح، يمنعنا إبيكتيتس[3] من احترام لغة الغرابين (الغداف والغداق)، لكن ذلك لا يعني أنهما لا يقولان الحقيقة: ذلك فقط لأنهما يستطيعان أن يخبرانا بقطع أعناقنا أو فقدان

[1] Cicero de Divin. lib. i. cap. 3 & 7.
[2] Lib. i. sec. 17.
[3] Ench. sec. 17.

أملاكنا، التي هي ظروف، كما يقول، لا تخصنا البتة. وهكذا يسبغ الرواقيون حماسة فلسفية على المعتقد الديني الخرافي. فقوة عقلهم، التي استدارت إلى الأخلاق بالكامل، أراحت نفسها من الهموم الدينية.[1]

يقدم أفلاطون[2] تأكيد سقراط، أن الاتهام بعدم الورع الذي رُفِع ضده يعود كلية إلى رفضه الخرافات، مثل خرافة إخصاء ساتورن لأبيه أورانوس وإطاحة جوبيتر بعرش ساتورن: لكنه في حوار تالٍ،[3] يعترف سقراط بأن عقيدة فناء الروح هي رأي تلقاه من الشعب. هل يوجد هنا أي تناقض؟ نعم، بالتأكيد: لكن التناقض ليس لدى أفلاطون، إنه في الشعب، الذي تتكون مبادئه الدينية دائماً من الأجزاء الأكثر تعارضاً وتنافراً، لاسيما في زمن طفت فيه المعتقدات الخرافية بسهولة ويسر عليهم.[4]

---

(1) الرواقيون، أعترف، لم يكونوا أصوليين تماماً في دينهم الراسخ، لكن قد يرى أحدهم، من هذه الأمثلة، أنه قطعوا شوطاً طويلاً: والناس بلا شك وصلوا الحد.

(2) Euthyphro. 6.
(3) Phaedo.
(3) Euthyphro. 6.
(3) Phaedo.

(4) سلوك زينوفون، كما تكلم عن نفسه، هو، في الوقت نفسه، برهان لا يقبل الجدل على السذاجة العامة للإنسانية في تلك الأزمنة، والتفكك، في كل العصور، لآراء الناس في القضايا الدينية. ذلك

الزعيم والفيلسوف الكبير وتلميذ سقراط، وأحد الذين قدموا بعض المشاعر الأكثر رقة في ما يتعلق بالرب أعطاه كل علامات التالية للمعتقد الخرافي العامي والوثني. بنصيحة سقراط استشار عرافة دلفي، قبل أن يشارك في حملة سيروس .De exped. lib. iii. p. 294, ex edit Leuncl. . يرى مناماً بعد الليلة التي اعتقل فيها الجنرالات، الذي يقدم له الاحترام الكبير لكنه يظن أنه غامض Id. p. 295. هو والجيش كله بعد العطس فأل خير كبير Id. p. 300 . ويرى مناماً آخر، عندما يأتي إلى نهر سينتريتس، الذي صديقه الجنرال كريستوفوس يحترمه جداً أيضاً Id. lib. iv. p. 323. الإغريقيون، الذين يتأذون من ريح الشمال الباردة، يقدمون الضحايا لها، والمؤرخ يلاحظ، أنها تهدأ في الحال Id. p. 329. يستشير زينوفون الأضحيات سراً، قبل أن يتخذ أي قرار بذاته بشأن الاستقرار في المستعمرة. Lib. v. p. 359. كان هو نفسه متنبئ ماهر جداً Id. p. 361. عزم من خلال الضحايا أن يرفض القيادة الفردية للجيش التي عرضت عليه. Lib. vi. p. 273. الأسبارطي، مع أنه كان يرغب بها جداً، يرفض للسبب نفسه. Id. p. 392. زينوفون يشير إلى منام قديم مع التفسير الذي قُدِّم له، عندما انضم إلى سيروس أولاً، ص. 373. ويشير أيضاً إلى المكان الذي هبط منه هرقل إلى الجحيم كمؤمن به، ويقول إن علامات ذلك لا تزال باقية. Id. p. 375. لقد جوع الجيش أكثر من قيادته إلى الميدان ضد التكهنات. Id. p. 382, 383. صديقه يوقليدس، العراف، لن يصدق أنه لم يجلب مالاً من الحملة؛ حتى ضحى يوقليدس، ومن ثم رأى القضية بوضوح في الاكستا (Exta) Lib. vii. p. 425. الفيلسوف نفسه، يقترح مشروع المناجم لزيادة العائدات الأثينية وينصحهم أولاً أن يستشيروا العرافة. De rat. red. p. 392. أن كل هذا الورع لم يكن سخرية (مهزلة) لخدمة هدف سياسي، يبدوان من

--

والشيء نفسه عند شيشرون، الذي تأثر، في عائلته، ليظهر متديناً ورعاً، لم يبدِ شكاً في محكمة علنية لإقامة العدل ومعالجة عقيدة حالة مستقبلية باعتبارها خرافة مثيرة للسخرية، لا يعطيها أحد أي اهتمام.[1] وسالوست[2] يمثل قيصر في التحدث بنفس اللغة علناً أمام مجلس الشيوخ.[3]

الوقائع نفسها، ومن عبقرية ذلك العصر، عندما القليل أو لا شيء يمكن أن يكتسب بالنفاق. علاوة على ذلك، زينوفون، كما يبدو من ذكرياته، كان نزعاً من هرطوق في تلك الأزمنة، التي لم تشهد إخلاصاً سياسياً في السابق. ولنفس السبب، أدافع عن أن نيوتن ولوك وكلارك وغيرهم كونهم آريين أو السيسونيين، كانوا مخلصين جداً للدين الذي يؤمنون به: وأنا أعارض دائماً هذا البرهان لبعض الفاسقين، الذين سيحتاجون إلى امتلاكه، كان ذلك مستحيلاً إلا أن هؤلاء الفلاسفة يجب أن يكونوا منافقين.

(1) Pro Cluentio, cap. 61.

(2) De bello Catilin. 51.

(3) شيشرون (Tusc. Quaest. lib. i. cap. 5, 6) وسنيكا (Epist. 24) وأيضاً جوفينال (Satyr. 2. 149)، يدافع عن أنه لا يوجد ولد ولا امرأة متقدمة في السن مثيرة للضحك بأن الشعراء في تفسيراتهم للدولة في المستقبل. لماذا إذن يمجد لوكريتيوس سيده لتحريرنا من تلك القطاعات؟ ربما معظم الناس كانوا عندئذٍ في مزاج سيفالوس في عمل أفلاطون (de Rep. lib. i. 330 D.) الذي بينما كان شاباً وذا صحة جيدة وأمكنه أن يسخر من هذه القصص؛ لكن حالما أصبح مسناً وواهناً، بدأ يستمتع بفهم حقيقتها. وهذا ما يمكن أن نلاحظ أنه غير عادي حتى في الوقت الحاضر.

لكـن كـل هـذه الحريـات، التـي لا تتـضمن إلحـاداً وشـكاً كـاملاً وشـاملاً بـين النـاس، واضـح جـداً يجـب أن تُتـكَـر. ومـع أن بعـض الأجـزاء مـن الـدين الـوطني تبقـى معلقـة طليقـة علـى عقـول النـاس، إلا أن أجـزاء أخـرى تكـون أكثـر التـصاقاً بهـم؛ وكـانت الشغل الشاغل للفلاسفة الشكوكيين لإظهار أنه لا يوجد أساس لواحد منها أكثر من الآخر. كانت هذه وسيلة كوتاCOTTA في الحوار المتعلق بطبيعة الآلهة. فهو يضحد منظومة الميثولوجيا كلها بتسديد ضربة إلى المألوف تدريجياً، من القصص الأكثر أهميـة، التي كان الشعب يؤمن بها، إلى الأكثر تفاهة، التي يسخر منهـا الجميع: ومن الأرباب إلى الريات، ومن الريات إلى الحوريات؛ ومـن الحوريـات إلى آلهـة الغابـات. وقـد اسـتخدم معلمـه كـارنيـدس CARNEADES المنهج نفسه في الاستنتاج.[1]

على العموم، الفروق الأكبر والأكثر جدارة بالملاحظة بـين اللاهـوت التقليـدي والـدين المنهجـي المدرسـي همـا اثنـان: الأول (التقليدي) غالباً ما يكون أكثر عقلانيـة باعتبـاره مكونـاً فقـط من عدد وافر من القصص، التي على الرغم من أنه لا أساس لهـا، فهـي لا تتـضمن سـخافة واضـحة ولا تناقـضاً جليـاً، وتـستقر في أذهان الناس بسهولة ويسر، إلى درجة، مع أنـه قد يكـون تلقيهـا شـاملاً، إلا أنهـا لحسن الحـظ لا تـثير انطباعـاً عميقـاً في المشـاعر والفهم.

---

[1] Sext. Empir. advers. Mathem. lib. ix. 429.

القسم الثالث عشر

المفاهيم غير الورعة للطبيعة المقدسة في كل من الدينين الشعبيين

يبرز الدين الأولي للبشر بشكل أساسي من الخوف الشديد من أحداث المستقبل؛ وما هي الأفكار التي سيتم التفكير بها طبيعياً عن القوى غير المرئية والمجهول، ويمكن تخيّلها بسهولة، بينما يرزح الناس تحت المخاوف الكئيبة من كل الأنواع. كل صورة للانتقام والقسوة والعنف والكراهية يجب أن تحدث وتفاقم الترويع والذعر، الذي يقمع المتدين المذهول. ولأن ذعر ما قد استولى على العقل ذات مرة، فإن الوهم النَشِط يضاعف أشياء الرعب أكثر فأكثر، في حين أن تلك العتمة العميقة، أو، ما هو أسوأ، ذلك الضوء الوامض، الذي يحيط بنا، يمثل أطياف اللاهوت تحت المظاهر الأكثر ترويعاً التي يمكن تصورها.

لا توجد فكرة، ولا ضلالة فاسدة يمكن أن تؤطر، إلا وهؤلاء المتعصبون للدين المذعورون على استعداد لأن يضيفوها إلى إلههم من دون تردد.

تبدو هذه حالة طبيعية للدين، عندما تُدرَس تحت ضوء واحد. لكننا إذا درسناها، من جهة أخرى، تلك الروح من التمجيد والمديح، التي لها مكان في كل الأديان بالضرورة، والتي هي نتيجة تلك المخاوف ذاتها، فيجب أن نتوقع نظاماً معاكساً تماماً للاهوت الذي يجب أن يسود. كل فضيلة، وكل تفوق، يجب أن يُعزى إلى الله، ولن يُحكَم على مبالغة أنها كافية لبلوغ ذلك الكمال، الذي مُنح لله. كل أناشيد المديح التي يمكن أن تبتكر، تعتنق مباشرة، من دون العودة إلى أي برهان في الظواهر: تقدر أنها توكيد وافٍ لها، أنها تعطينا أفكاراً أكثر روعة عن الأشياء المقدسة في عبادتنا وتمجيدنا.

لذلك هنا يوجد نوع من التناقض بين المبادئ المختلفة في طبيعة الإنسان، التي تدخل إلى الدين. تقدم مخاوفنا الطبيعية فكرة عبادة شيطانية وخبيثة: ميلنا إلى التزلف يقودنا إلى الاعتراف بتفوق وإله ما. وتأثير هذه المبادئ المتعاكسة مختلف، تبعاً للوضع المختلف لفهم الإنسان.

في الأمم البربرية والجاهلة عينها مثل الأفارقة والهنود، وليس هذا وحسب فحتى اليابانيون، الذين لا يستطيعون تشكيل أفكار واسعة عن السلطة والمعرفة، قد تُقدَّم العبادة لكائن، هم يعترفون أنه شرير ومنفّر؛ مع أنهم قد يكونون حذرين، ربما، من إعلان هذا الحكم عليه علناً، أو في معبده، حيث قد يُفترَض أنه يسمع لومهم.

ارتبطت مثل هذه الأفكار البدائية المنقوصة عن الألوهية طويلاً بكل عبدة الأوثان، ويمكن التأكيد بثقة على أن الإغريقيين أنفسهم لم يتخلصوا منها تماماً. لاحظ زينوفون،[1] في مديحه لسقراط، أن هذا الفيلسوف لم يوافق على الرأي السوقي، الذي افترض أن الآلهة يجب أن تعرف بعض الأشياء وتجهل أخرى: لقد دافع عن أنها تعرف كل شيء؛ وما حدث أو قيل أو حتى فكر المرء فيه. لكن بما أن هذا كان تسلسل أفكار فلسفة[2] فوق مفهوم مواطنيه كثيراً، لا نحتاج إلى أن نُدهَش، إذا لاموا الآلهة، التي يعبدونها في معابدهم، بصراحة في كتبهم ونقاشهم. هذا ملحوظ، أن هيرودت بشكل خاص لا يتردد

---

[1] Mem. lib. i. 1, 19.

[2] كان ذلك يُعدّ بين القدماء، أنهي استثنائي جداً، مفارقة فلسفية، أن حضور الآلهة لم يكن مقتصراً على السماء، لكنه وُسِّع في كل مكان؛ كما تعلمنا من لوسيان. Hermotimus sive De sectis, 81.

في مقاطع كثيرة، من أن يعزو الحسد إلى الآلهة، شعور، من كل المشاعر الأخرى، هو الأكثر ملاءمة للطبيعة الوضيعة والشيطانية. الأناشيد الوثنية، في كل حال، التي تُنشَد في العبادة العامة، لا تحتوي شيئاً إلا صفات التمجيد، حتى بينما الأفعال التي تعزى إلى الآلهة كانت الأكثر همجية و، بغضاً. عندما تيميثيوس، الشاعر، أنشد نشيداً للربة ديانا، عدَّد فيه، مع المدائح الكبرى، كل الأفعال وصفات تلك الربة العنيفة والنزوية: فلتغدو ابنتك، كما قال أحدهم، مثل الإله الذي تعبدينه.[1]

لكن الناس، على الرغم من ذلك، يمجدون فكرتهم عن ألوهيتهم أكثر؛ إنها فكرتهم عن قوته ومعرفته وحسب، ليست عن طيبتهم، التي تتحسن. بالعكس، مقارنة مع مدى علمه وسلطته، طبيعي أن أهوالهم تزداد، بينما هم يعتقدون، أنه لا يوجد سر يمكنه أن يخفيهم من تدقيقه، وأن أعمق أعماقهم تظهر له جلية. وبالتالي يجب ألا يعبروا عن أية فكرة لوم وشجب. يجب أن يكون كل شيء مبهجاً، فرحاً، مفعماً بالحياة. وبينما تجعلهم إدراكاتهم الكئيبة يعزون إليه درجات من السلوك، الذي يلام لدى البشر جداً، ويجب أن يتظاهروا بمديحه والإعجاب بذلك السلوك في خطاباتهم المكرسة له. وهكذا إن ما يمكن

(1) Plutarch, de Superstit. 10.

تأكيده بثقة، هو أن الأديان الشعبية هي في الحقيقة، في تصور مريديها الأكثر سوقية، نوع من الإيمان بالعفاريت، وأنه بقدر ما تمتدح الألوهية على نحو أكثر علواً بالقوة والمعرفة، يكون أدنى مرتبة في مسار الطيبة والإحسان؛ مهما كانت صفات المديح التي يمكن أن يغدقها عليه محبوه المذهولون. بين الوثنيين، يمكن أن تكون الكلمات مزيفة، وتكذب الآراء السرية: لكن بين المتدينين الأكثر رفعة، الرأي نفسه يتضمن نوعاً من الزيف، ويكذب العاطفة الداخلية. القلب سراً يمقت هذه الدرجات من القسوة والعنف والانتقام الذي لا يمكن تهدئته، لكن الحكم لا يتجرأ إلا على أن يعلنها مثالية ومحبوبة. والتعاسة الإضافية لهذا الصراع الداخلي يفاقم كل المخاوف الأخرى، التي بسبب تلك الأضحيات التعيسة للمعتقد الخرافي يظلون مسكونين بالأشباح إلى الأبد.

يلاحظ لوسيان[1] أن الرجل الشاب، الذي يقرأ تاريخ الآلهة في أعمال هوميروس أو هزيود، ويجد نزاعاتهم وحروبهم ومظالمهم وسفاحهم القربى ودعارتهم وممارسات أخرى غير أخلاقية ممجدة عالياً، سيدهش كثيراً بعد ذلك، عندما يأتي إلى العالم، ليرى أن العقوبات هي وفقاً للقانون تُنزَل على الأفعال نفسها، التي تعلم

(1) Necyomantia. 3.

أن يعزوها للكائنات الأسمى. التناقض ربما لا يزال أقوى بين التمثيلات المعطاة لنا من بعض الأديان الأخيرة وأفكارنا الطبيعية للسماحة والكرم والرفق والنزاهة والعدالة وفي تناسب مع المخاوف المضاعفة في هذه الأديان والمفاهيم البربرية في اللاهوت يتضاعف علينا.[1] لا شيء يمكنه حفظ المفاهيم غير الملوثة

---

[1] باخوس، كائن مقدس، يمثل في الميثولوجيا الوثنية بأنه مبدع الرقص والمسرح. كانت المسرحيات قديماً جزءاً من عباءة عامة في المناسبات الأكثر قدسية، وغالباً ما استخدمت في أزمنة الطاعون، لتهدئ الآلهة المنزعجين. لكنهم كانوا محرمة بحماسة من الآلهة في العصور الأخيرة والمسرح بالنسبة لكاهن متعلم هو رواق المدخل إلى جهنم.

لكن من أجل إظهار بطريقة أكثر بلاء، ذلك أنه من الممكن بالنسبة لدين ما أن يمثل الله في ضوء لا يزال أكثر فسوقاً وقسوة مما صوّره القدامى. سنعرض مقطعاً طويلاً من مؤلف ذي ذائقة وخيال، الذي بالتأكيد لم يكن عدواً للمسيحية. إنه الفارس رامسي، كاتب، الذي له شهرة وميل إلى الأرثوذكسية، والذي لم يواجه سببه أي صعوبة، حتى في العقائد التي يرتاب فيها المفكرون الأحرار كثيراً، الثالوث الأقدس. والتجسيد والرضا؛ إنسانيته وحدها، التي يبدو أنه يمتلك منها كماً كبيراً، تمرد ضد عقائد، العذاب الأبدي والقدر. هو يعبر عن نفسه هكذا: "ما الأفكار الغريبة" هو يقول، "إذا ما اعتنق فيلسوف هندي أو صيني ديننا المقدس، إذا حوكما بالأنظمة التي أعطاها له مفكرون ذوو الفكر الحر الجدد والدكاترة الفريسيين في كل الطوائف؟ وفقاً لهذا النظام البغيض والعامي جداً لهؤلاء الشكاكين المثيرين للسخرية والمؤلفين التافهين الساذجين،" رب اليهود هو الكائن

--

الأكثر قسوة وجوراً وتحيزاً وسعة خيال. خلق قبل 6000 عام امرأة ورجلاً وأسكنهم في حديقة جميلة في آسيا، التي لا يوجد منها بقايا. هذه الجنة مزودة بكل أنواع الأشجار والينابيع والأزهار. وسمح لهم أن يأكلوا كل فاكهة الجنة الجميلة. إلا واحدة، تلك التي زرعت في الوسط في تلك الجنة، وكان لتلك الفاكهة سراً من شأنه أن يحفظهما في صحة دائمة وقوة بدنية وعقلية ويعلي قواهما الطبيعية ويجعلهما أكثر حكمة. دخل الشيطان في جسم أفعى، وأغرى المرأة أن تأكل هذه الفاكهة الممنوعة، وورطت زوجها أن يفعل الشيء نفسه. لمعاقبة هذا الفضول الطفيف والرغبة الطبيعية في الحياة والمعرفة، لم يرمِ الله أبوينا الأولين من الجنة وحسب، بل عاقب ذريتهما ببؤس مؤقت، والقسم الأعظم منهم إلى عذاب أبدي، مع أن أرواح هؤلاء الأطفال الأبرياء لا علاقة لها بخطأ آدم أكثر من علاقتهم بأخطاء نيرون ومحمد؛ ما دام، وفقاً للثرثارين المدرسيين وكتاب الخرافة والميثولوجيين، كل الأرواح تُخلَق بريئة وتتغلغل على الفور في أجساد الأحياء حالما يتشكل الجنين. ولتنفيذ القرار البربري المتحيز بالكامل للقدر المحتوم والنبذ الإلهي، يهجر الله الأمم كلها في الظلمة والوثنية والإيمان بالخرافة، من دون أية معرفة تنقذهم أو عناية مفيدة، ما لم تكن من أمة واحدة خاصة اختارها هو باعتبارها شعبه الخاص. وكانت هذه الأمة، في كل حال، الأمة الأكثر حماقة ونكراناً للجميل وعصياناً وغدراً من كل الأمم. وبعد أن أبقى الله بالتالي القسم الأعظم من الكائنات البشرية، خلال ما يقارب الأربعة آلاف سنة، في حالة رفض، غيّر كل شيء فجأة. واختار أمماً أخرى إلى جانب اليهود. من ثم أرسل ابنه الوحيد إلى العالم، في شكل إنسان، لتهدئة غضبه، ويرضي الله عدالته العقابية، ويموت للعفو عن خطيئة. ومع ذلك، أمم قليلة، سمعت بهذه البشارة؛ وكل البقية، مع أنهم تركوا في جهل مطبق، حلت عليهم اللعنة من دون استثناء. أو أية إمكانية للغفران. القسم الأعظم من هؤلاء الذين سمعوا

--

بها، لم يغيروا إلا بعض المفاهيم التخمينية بشأن الله، وبعض المظاهر الخارجية في العبادة: لأنه، في نواحٍ أخرى، مجمل المسيحيين استمروا فاسدين مثل بقية الناس في أخلاقهم؛ نعم أكثر إثماً وجريمة، لأن مصابيحهم كانت أكبر. وما عدد مختار صغير، كل المسيحيين، مثل الوثنيين، ستلحقهم اللعنة إلى الأبد، التضحية الكبيرة التي قدمت لأجلهم ستغدو من دون جدوى ولا تأثير، والرب وسيشعر بالبهجة إلى الأبد، في تحريفهم النصوص والتجديف، ومع ذلك يستطيع بأمر واحد أن يغير قلوبهم، لكنهم سيبقون، إلى الأبد، غير مهتدين وغير قابلين للهداية، لأنه سيبقى إلى الأبد غير قابل للتهدئة والمصالحة. ذلك صحيح، أن كل شيء بالتالي سيجعل الرب، بغيضاً وكاره أرواح، أكثر منه محباً لها؛ قاسٍ وطاغية حقود وضعيف أو عفريت غاضب، أكثر منه كلي القدرة، أب رحيم للأرواح "لكن كل هذا لغز. لديه أسبابه السرية لسلوكه، التي لا يمكن فهمها، ومع أنه يبدو جائراً وبربرياً، لكن يجب أن نؤمن بالعكس، لأن ما هو غير عادل وجريمة وقسوة والحقد الأكثر سواداً فينا، هو فيه عدالة ورحمة وخير مطلق." وبالتالي فإن ذوي الفكر الحر المفطورين على الشك، والمسيحيين المتهودين والدكاترة المؤمنين بالقضاء المقدس، وبالتالي خلطوا بين طبيعة الخير والشر، حولوا العواطف الأكثر وحشية في الصفات الإلهية، و تجاوزوا الوثنيين في التجديف على الله، بالعزو إلى الطبيعة الأزلية، كأشياء كاملة، ما يجعل الجرائم الأكثر فظاعة بين البشر. الوثنيون البدائيون أقنعوا أنفسهم بتقديس الشهوة وسفاح الأقارب والدعارة؛ لكن الدكاترة المؤمنين بالقضاء والقدر قدسوا القسوة والخنق والغضب والانتقام وكل الآثام الأكثر سواداً. راجعوا المبادئ الفلسفية للفارس رامزي للدين الطبيعي الموحى، الجزء الثاني الصفحة 401.

والمؤلف نفسه يؤكد، في أمكنة أخرى، أن البرامج الأرمنية والمولينية يخدم قليلاً إصلاح المشكلة: وكونه رمى نفسه خارج كل الطوائف

--

الأصلية للأخلاق في حكمنا على سلوك الإنسان، بل الحاجة المطلقة لهذه المبادئ لوجود المجتمع. إذا استطاع التصور العام أن يقحم الأمراء في منظومة الأخلاق، بطريقة ما مختلفة عن تلك التي ينبغي أن تنظم الأفراد الذين لا يتولون مناصب رسمية؛ كم هي تلك الكائنات المتفوقة التي صفاتها وآراؤها وطبيعتها غير معروفة تماماً لنا؟ إن للآلهة قوانين عدالتهم الخاصة بهم.[1]

المسيحية المقبولة بشكل عام. إنه ملزم بتحسين نظامه، الذي هو نوع من النشوئية، ويفترض الوجود المسبق لأرواح كل من الناس والحيوان والخلاص الأبدي واهتداء كل الناس والحيوان والشياطين. لكن هذه الفكرة، كونها خاصة تماماً لنفسه؛ لا نحتاج إلى تناولها. لقد حسبت أن أفكار هذا المؤلف العبقري اللافتة للاهتمام؛ لكنني تظاهرت بعدم ضمان عدالتها.

[1] Ovid. Metam. lib. ix. 499.

القسم الرابع عشر

التأثير السيئ للأديان الشعبية في المبادئ الأخلاقية

هنا لا يمكنني أن أمنع نفسي من مراقبة واقع معين، قد يكون جديراً بالانتباه إلى ما يشبه جعل طبيعة الإنسان موضوعاً لبحثها. وهذا بالتأكيد، الذي يوجد في كل الأديان، مهما كان التعريف الشفوي الذي تعطيه لإلهها سامياً، فإن الكثير من أنصارها، وربما العدد الأكبر، سيظل يسعى إلى العطف الإلهي، ليس بالفضيلة والأخلاق الصالحة، التي وحدها يمكن أن تكون مقبولة لدى الكائن المثالي، بل إما بمراقبات عابثة، أو حماسة مفرطة أو نشوة طربية، أو الإيمان بالآراء الغامضة والسخيفة. الجزء الأدنى الأكثر حزناً بالإضافة إلى الأسفار الخمسة الأولى أيضاً، يتكون من مبادئ الأخلاق، ويمكنني، ويمكننا أن نكون متأكدين، أن ذلك الجزء كان دائماً الأقل مراقبة

واعتباراً. عندما هوجم الرومان القدماء بالطاعون، لم يعزوا معاناتهم إلى آثامهم قط، أو حلموا بالتوبة والإصلاح. ولم يفكروا قط، أنهم كانوا اللصوص الكبار في العالم، الذين جعل طموحهم وجشعهم الأرض مهجورة وحطّوا الأمم الغنية إلى درك الفاقة والتسول. لم يبتكروا إلا طاغية،[1] ليدقوا مسماراً في الباب، وبتلك الوسيلة، ظنوا أنهم خففوا من عبادتهم العابقة بالبخور على نحو كافٍ.

في إيجينا AEGINA، حاكت إحدى الجماعات المنشقة مؤامرة واغتالت بطريقة بربرية وغادرة سبعمائة من مواطنيهم، ووصل غضبهم بعيداً، إلى درجة، أن، أحد الآبقين البائسين الذي هرب إلى المعبد، قطعوا يديه، اللتين أمسك بهما في البوابات، وحملوه إلى خارج الأرض المقدسة، وقتلوه من دون تأخير. بهذه اللاتقوى، يقول هيرودتس،[2] (ليس باغتيالات عنيفة أخرى كثيرة) أثموا بحق الآلهة واقترفوا ذنباً لا يغتفر.

لا، إذا كان علينا أن نفترض، ما لن يحدث أبداً، أن ديناً شعبياً كان قد نشأ، أعلن فيه بجلاء، أن لا شيء غير المبادئ الأخلاقية يمكنها أن تفوز بتأييد الآلهة؛ إذا صدر أمر من الكهنة

[1] Called Dictator clavis figendae causa. T. Livii. l. vii. c. 3.
[2] Lib. vi. 91.

لغرس هذا الرأي في النفوس، في الطقوس اليومية، وفي كل فنون الإقناع! علاوة على أنها متأصلة جداً هي أهواء الناس، التي، بسبب الحاجة إلى اعتقاد خرافي ما آخر، سيجعلون حضور هذه الطقوس عينه من أساسيات الدين، بدلاً من وضعها في أخلاقيات فاضلة وجيدة. المقدمة السامية لقوانين زاليوكس ZALEUCUS[1] لم تلهم اللوكريانيين LOCRIANS، إلى حد ما نعلم، بأي أفكار مسبارية لقياس القبول بالله، أكثر مما كان مألوفاً لدى الإغريقيين الآخرين.

هذه الملاحظة المدعومة عالمياً وقتذاك: لكن لا يزال المرء يمكن أن يكون مرتاباً بتفسيرها. ليس كافياً أن نراقب، أن الناس، في كل مكان، يحطون من شأن آلهتهم إلى تشبيهها بأنفسهم، ويعدونها ببساطة كائناً من المخلوقات الإنسانية أكثر قوة وذكاء إلى حد ما. هذا لن يزيل الصعوبة، لأنه ليس هناك إنسان أحمق جداً، مثل ذلك، إذا حكمنا بمنطقه الطبيعي، لن يحترم الفضيلة والنزاهة الخاصتين الأكثر قيمة، اللتين يمكن لأي شخص أن يتحلى بهما. لماذا لا ينسب عاطفته نفسها إلى إلهه؟ لماذا لا يجعل كل الدين، أو الجزء الأكبر منه، يتكون من هذه المكاسب؟

[1] To be found in Diod. Sic. lib. xii. 120.

وليس مُرضياً أن نقول، إن ممارسة المبادئ الأخلاقية أكثر صعوبة من ذلك المعتقد الخرافي، وهي لذلك تُرفَض. لأن ذلك مؤكد، دون أن نشير إلى الكفارات المفرطة لدى البراخمانيين والتالابيين، ذلك أن رمضان لدى الأتراك الذي خلاله يبقى المعوزون الفقراء لأيام كثيرة، غالباً في الشهور الأكثر حرارة في العالم من دون أكل أو شراب من قبل شروق الشمس إلى غروبها. رمضان هذا، أقول، يجب أن يكون أشد قسوة من ممارسة أي واجب أخلاقي، حتى للأكثر فساداً وفسوقاً من الناس. أوقات الصيام الأربعة عند الموسكوفيين، والممارسات الصارمة عند بعض الرومان الكاثوليك، تبدو شيئاً كريهاً أكثر منه حلماً وإحساناً. باختصار، كل الفضائل، عندما يتقبلها الناس بقليل من الممارسة، تكون مقبولة: المعتقد الخرافي كله مزعج ومرهق إلى الأبد.

ربما، يمكن تلقي الرواية التالية كحل صحيح لهذه الصعوبة. الواجبات التي يؤديها الإنسان كصديق أو أب، تبدو ببساطة أنها بداعي المحسن إليه أو أطفاله؛ ولا يمكن أن تكون نقصاً لهذه الواجبات، من دون خرق لكل روابط الطبيعة والأخلاق. ميل قوي قد يحفزه إلى الأداء: شعور الالتزام بالنظام والأخلاق يضم قوته إلى هذه الروابط الطبيعية: والمرء بكليته، إذا كان فاضلاً حقاً، يكون مشدوداً إلى واجبه، من دون أي

جهد أو مسعى. حتى في ما يتعلق بالفضائل، التي هي أكثر صرامة، وأكثر تأسيساً على التأمل، مثل الروح العامة أو واجب النبوة، أو ضبط النفس، أو الاستقامة، الالتزام الأخلاقي في فهمنا، يبطل كل ذريعة لفضيلة دينية، والسلوك الأخلاقي غير محكوم إلا بما ندين به للمجتمع وأنفسنا. وفي كل هذا لا يجد الإنسان المؤمن بالخرافة شيئاً، أنجزه كما ينبغي من أجل إلهه، أو الذي يستطيع أن يزكيه بشكل خاص للعطف الإلهي وحمايته. هو لا يفكر أن الطريقة الأكثر أصالة لخدمة المقدس هي تعزيز سعادة مخلوقاته. وهو لا يزال يرعى خدمة أكثر سرعة للكائن الأسمى، من أجل أن يهدئ تلك المخاوف التي تنتابه، وأية ممارسة أوصي بها، الذي إما لا تخدم غرضاً في الحياة، أو تقدم العنف لميوله الطبيعية، تلك الممارسة هي التي سيتبناها بسهولة بسبب تلك الظروف، التي تجعله يرفضه بالمطلق. ذلك يبدو الأكثر نقاء دينياً، لأنه لا ينبع من أي خليط ذي دافع أو اعتبار آخر. وإذا كان، لأجله، يضحي كثيراً من راحته وسكينته، يبدو زعمه بفضيلته ستظهر عليه بما يتناسب مع الحماس والإخلاص الذي يكتشفه. في استرداد قرض أو دفع دين، ألوهيته ليست مدينة بالفضل له البتة؛ لأن هذه الأفعال للعدالة هي التي لم يكن ملزماً بأدائها، وما الكثير الذي سيؤديه، إذا لم يكن هناك إله في الكون. لكنه إذا صام يوماً، أو جلد نفسه بقسوة، هذا له إشارة

مباشرة، في رأيه، إلى خدمة الله. لا يمكن لدافع آخر أن يورطه في هذه الأعمال الوحشية. بهذه الملاحظات المميزة للورع، اكتسب وقتئذٍ رعاية المقدس، ويمكنه أن يتوقع، جزاء، الحماية والسلامة في هذا العالم، والسعادة الأبدية في العالم الآخر.

من هنا وُجِدَت الجرائم الأكثر فظاعة، في أمثلة كثيرة، متناغمة مع التقوى والولاء الخرافي: ومن هنا، يعتبر بحق ليس مأموناً أن نستخلص أي استنتاج أكيد لصالح أخلاق إنسان ما، من حماسة ممارساته الدينية أو تزمتها، حتى لو كان هو يؤمن بها بصدق. ولا، لوحظ، أن بشاعات الصباغ الأكثر سواداً كانت أكثر ميلاً لإنتاج مخاوف خرافية وزيادة العاطفة الدينية. بوملكار BOMILCAR، لأنه أعد مؤامرة لاغتيال مجلس الشيوخ كله في وقت واحد في قرطاجة، وينتهك حرمة الحريات في بلده، فقد الفرصة، من احترام مستمر للتكهنات والتنبؤات. هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم أكثر الأعمال الإجرامية خطورة هم عادة الأكثر تعلقاً بالخرافات، كما يعلق أحد المؤرخين القدماء[1] على هذه المناسبة. إن ورعهم وإيمانهم الروحي يزداد مع مخاوفهم. لم يكن كاتلين مقتنعاً بالعبادة الراسخة وشعائر الدين الوطني المتوارثة: لقد جعلته مخاوفه القلقة يسعى إلى

(1) Diod. Sic. lib. xx. 43.

تلفيقات جديدة من هذا النوع،[1] ربما لم يحلم بها قط، لو بقي مواطناً صالحاً وأطاع قوانين بلده.

إلى ما يمكننا أن نضيف، أنه، بعد ارتكاب الجرائم، تبرز هناك أفعال ندم ومخاوف سرية، لا تريح البال، بل تجعله يلجأ إلى الشعائر والطقوس الدينية، تكفيراً عن آثامه. فمهما تكن نقاط الضعف والاعتلالات يدعم الإطار الداخلي مصالح المعتقد الخرافي. ولا شيء أكثر تدميراً لها من صفة رجولية ثابتة، إما أن تحفظنا من حوادث كارثية كئيبة، أو تعلمنا أن نتحملها. خلال مثل هذا الإشراق الهادئ للعقل، لا تظهر أطياف الألوهية المزيفة لا تظهر أبداً. من جهة أخرى، عندما ندع أنفسنا للإشارات الطبيعية غير المنضبطة لقلوبنا القلقة الجبانة، تُنسَب أنواع البربرية كلها إلى الكائن الأسمى، من الفظاعات التي أثارتنا، وجميع أنواع النزوات من الطرق التي نتبناها لتهدئته. البربرية والنزوة، هاتان الخاصتان، مهما أخفيتا اسمياً، يمكننا أن نلاحظ بشكل عام، من الخاصة السائدة للإله في الديانات الشعبية. حتى الكهنة، بدلاً من أن يصححوا هذه الأفكار الفاسدة لدى الناس، غالباً ما يكونون جاهزين لرعايتها وتشجيعها. بقدر ما يمثل المقدس عظيماً، يكون كهنته أكثر مذلة وخضوعاً. وبقدر ما تكون

[1] Cic. Catil. i. 6, Sallust. de bello Catil. 22.

معـايير القبـول الـتي يطلبهـا لا تحـصى، يغـدو ضـرورياً أكثـر أن نتخلى عن رشدنا الطبيعي، ونستسلم لهديها وتوجيهها الـشبحي. وهكذا يمكن أن يكون مسموحاً أن تفاقم وسائل الناس عجزنا وحماقاتنـا مـن هـذا النـوع، لكنهـا لا تـسببها في الأصـل أبـداً. فجذرها يضرب أعمق في العقل، وينبـع مـن الخـصائص الجوهريـة والعامة لطبيعة الإنسان.

القسم الخامس عشر
خلاصة عامة

مع أن حماقة الناس، البربرية والمنفلتة، كبيرة جداً، إلى درجة لا يمكنهم أن يروا مؤلفاً رئيساً في الأعمال الأكثر وضوحاً في الطبيعة، إلى التي هم أكثر إلفة؛ علاوة على ذلك قلما يبدو الأمر ممكناً، أن أي شخص من ذوي الفهم الجيد يجب أن يرفض تلك الفكرة، إذا ما عُرِضت عليه ذات مرة. ثمة هدف وغاية وقصد جلي في كل شيء؛ وعندما يكون إدراكنا قد كبر ليتأمل الإشراقة الأولى لهذا النظام الواضح، يجب أن نتبنى، باقتناع قوي، فكرة سبب أو مؤلف ذكي ما. الحقائق العامة المتماثلة، أيضاً، التي تسود في إطار العالم كله، من الطبيعي، إذا لم يكن ضرورياً، أن تقودنا إلى تخيل هذا

الذكاء أنه وحيد ولا يقسَّم، حيث أهواء التعليم لا تعارض بطريقة منطقية أية نظرية. حتى تناقضات الطبيعة، بالكشف عن نفسها في كل مكان، تغدو براهين على خطة متماسكة، وتؤسس غرضاً أو غاية واحدة، مهما تكن غير قابلة للإيضاح وغير قابلة للفهم.

الصالح والطالح متواشجان وممتزجان كونياً؛ السعادة والتعاسة، الحكمة والحماقة، الفضيلة والرذيلة. لا شيء نقي ومن عينة واحدة تماماً. جميع الفوائد متلازمة مع المساوئ. ثمة تعويض عام يسود في كل ظروف الكون والوجود. وذلك ليس ممكناً بالنسبة لنا، بالأماني الأكثر خيالاً، لتشكيل فكرة لمحطة أو موقف مرغوب تماماً. تيارات الحياة، تبعاً لخيال الشاعر، مجبولة دائماً من أوعية في كل من يدي جوبيتر: أو إذا قدم أي كوب على أنه نقي تماماً، يزاح فقط، كما يخبرنا الشاعر نفسه، من الكوب في اليد اليسرى.

الأكثر روعة أن أي شيء جيد، من الذي يُقدَّم لنا عينة منه، هو أن الشر هو الأقسى، مرتبطاً به، واستثناءات قليلة توجد في هذا القانون الثابت في الطبيعة. إن الحصافة الأكثر حيوية تجاور الجنون؛ وتدفق المباهج الأعلى ينتج الكآبة

الأعمق، والأفراح الأكثر فتنة تكون محفوفة بالتعب والاشمئزاز الأكثر وحشية، والآمال الأكثر جاذبية تشق طريقاً للإحباطات الأكثر قسوة، و، في العموم، لا نهج في الحياة يمتلك الأمان (لأن السعادة يجب ألا يُحلَم بها) مثل الاعتدال والتوسط، الذي يحفظ، قدر المستطاع، توسطاً ونوعاً ما من عدم الرقة، في كل شيء.

مثلما يوجد الخير والعظمة والسمو والفتنة في المبادئ الحقيقية للإيمان بإله واحد، يمكن توقع، من القياس في الطبيعة، أن تُكتَشَف الأشياء الدنيئة والسخيفة والوضيعة والرهيبة بالمثل في الأخيلة والأوهام الدينية.

إن الميل العام للاعتقاد في القوة اللامرئية الذكية، إذا لم يكن غريزة أصلية، كونها على الأقل شيء ملازم عام للطبيعة الإنسانية يمكن أن يُنظَر إليها كنوع من علاقة أو طابع، وضعه الصانع الإلهي على عمله؛ ولا شيء بالتأكيد يمكن أن يكرِّم الإنسانية أكثر من أن يتم اختيارها من كل أجزاء الخلق الأخرى، وأن تحمل صورة الخالق الكوني أو تعبيره. لكن راجع هذه الصورة، كما تظهر في الأديان الشعبية في العالم. كيف يُشوَّه الله في تمثيلاتنا له! كم نحط من شأنه

حتى إلى ما دون الشخصية، التي يجب أن ننسبها إلى إنسان عاقل وفاضل، بشكل طبيعي، في الحياة العامة.

أي امتياز نبيل لعقل الإنسان أن يحصل على معرفة الكائن الأعلى، و، من الأعمال المرئية في الطبيعة، أن يتمكن من استنتاج مبدأ سامٍ مثل خالقه الأعلى؟ لكن لنعكس وجه العملة. لندرس معظم الأمم ومعظم العصور، لنفحص المبادئ الدينية، التي، في الواقع، سادت في العالم. قلما سنكون مقتنعين، أنها أي شيء إلا أحلام أناس مرضى: أو ربما سوف نعتبرها نزوات مرحة لقرود في هيئة بشر أكثر منها توكيدات دوغمائية إيجابية جدية لكائن ما، يبجل نفسه باسم العاقل.

لنسمع الاحتجاجات الشفهية لكل الناس: لا شيء مؤكد مثل معتقداتهم الدينية. لنفحص حياتهم: وسوف نجد أنهم لا يضعون أدنى ثقة فيها.

لا يقدم لنا الحماس الأكبر والأكثر صحة أي أمان ضد النفاق: فالرجس الأكثر وضوحاً متلازم ترويع وعار سري.

لا توجد سخافات لاهوتية جلية جداً لم يعتنقها، أحياناً، أناس ذوو فهم عميق وثقافة عالية. ولا مبادئ دينية صارمة لم يتبناها الناس الأكثر فسقاً وخلاعة.

الجهل هو أم التقوى: حقيقة عامة أصبحت قولاً سائراً، وقد أكدتها التجربة العامة. ولنبحث عن شعب ما يفتقر إلى الدين بالكامل: إذا وجدناه على الإطلاق، يجب أن نكون متأكدين، أنه لم يتطور إلا عدة درجات عن الحيوانات.

فما هي الأخلاق الأكثر نقاء التي تتضمنها بعض الأنظمة اللاهوتية؟ وما هي الممارسات الأكثر فساداً التي تشجعها تلك الأنظمة؟

وجهات النظر المريحة التي يظهرها الإيمان بالمستقبل سارة وتأخذ بالألباب. لكن ذلك يتبدد بسرعة عندما تظهر فظاعاتها، التي تحمي امتلاكاً أكثر رسوخاً وثباتاً لعقل الإنسان؟

الأمر كله لغز، أحجية، سر غير قابل للتفسير. يبدو الشك والريبة والحيرة بالحكم أنه النتيجة الوحيدة لتبصرنا الأكثر دقة في ما يتعلق بهذا الموضوع. لكن هذه هي هشاشة عقل

الإنسان، وهذه العدوى التي لا تقاوم للرأي، أن حتى هذا الشك المتعمد قلما يمكن أن يُدعَم، ما لم نوسع رؤيتنا ونعارض أحد الكائنات الخرافية بآخر، ونجعلها تتنازع، بينما نحن أنفسنا، خلال سخطها ونزاعها، نشق طريقنا بسعادة إلى مناطق الفلسفة الهادئة على الرغم من أنها نائية ومبهمة.

«أي امتياز نبيل لعقل الإنسان أن يحصل على معرفة الكائن الأعلى، ويتمكن من استنتاج المبدأ السامي بخالقه الأعلى من الأعمال المرئية في الطبيعة؟ لكن لنعكس وجه العملة، وندرس معظم الأمم ومعظم العصور، ونفحص المبادئ الدينية، التي سادت في العالم. في الواقع، لن نقتنع إلا بأنها أحلام أناس مرضى أكثر من أي شيء آخر؛ أو ربما سوف نعتبرها نزوات مرحة لقرود في هيئة بشر أكثر منها توكيدات دوغمائية إيجابية جدية لكائن ما، يبجل نفسه باسم الكائن العاقل.»

ربما كان هذا الكتاب شمعة تضيء هذا الليل الذي خلقه التطرف باسم الدين. فمعرفة الشيء خير وسيلة للانتفاع به، والتاريخ أحد مفاتيح حقيقة الأشياء التي ورثناها من الماضي البعيد.

ديفيد هيوم واحد من هؤلاء الذين أماطوا اللثام عن قضية الإيمان الذي شغل الناس في الماضي ويشغلهم في الحاضر، وربما سيشغلهم في المستقبل.

التاريخ الطبيعي للدين

دار الفرقد
للطباعة والنشر - دمشق - سوريا